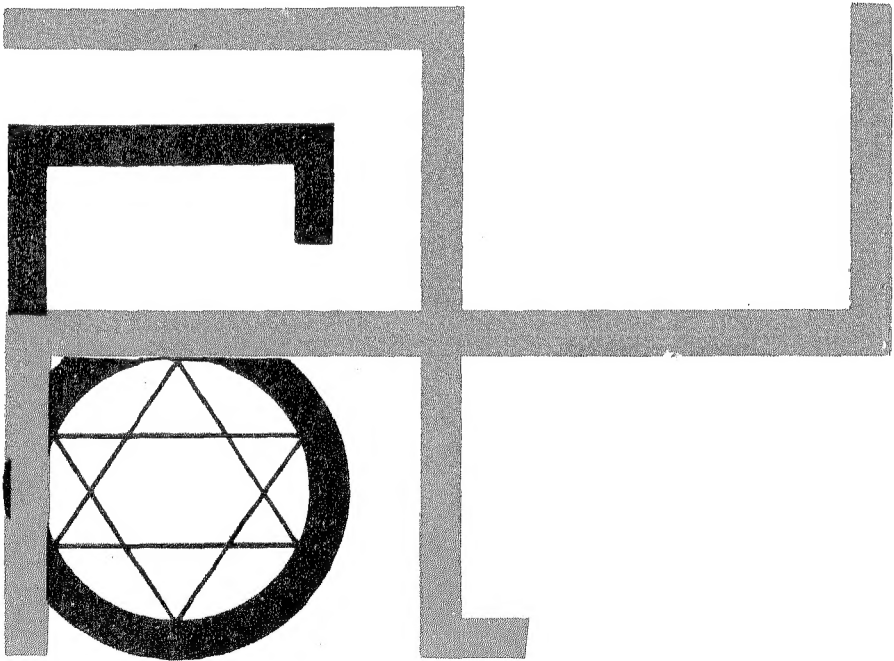


في المعركة

إسرائيل كما رأيتها


للكاتبة الفرنسية: مارتين مونو



طومسون
باس سيد أحمد

فني المعركة

إسرائيل كما رايتها



بقلم الكاتبة الفرنسية : مارتين موني

ترجمة : هليم طوسون

مراجعة : محمد عباس سيد أحمد

الرؤية المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧٢

٢٥٥

١- رولة صغيرة .. ومسكطة ضخمة

عندما بدأت الكتابة عن اسرائيل ، وأقدمت على هذه المحاولة غير الكاملة حتما ، تذكرت كثيرا من النظرات والوجوه .. وجوه عرب ووجوه يهود . لا شك أن تلك الأرض يتركز فيها ، دون سائر أركان المعمورة ، أكبر قدر من المآسى الفردية على رقعة محدودة للغاية . فلكل أنواع الاضطهاد صداها هنا : الاستعمار والاقطاع اللذين تردى فيهما العالم العربى لسنوات طويلة ، والفاشية الهتلرية التى اجتاحت أوروبا ، والعنصرية فى أشكالها المتباينة ، وأخطبوط البنتاجون .. كل ذلك يتشابك ويتداخل فى هذه الأرض الواقعة على مفترق الطرق بين الشعوب والحضارات .

وزيادة اسرائيل طوال شهر ، يزيد عن اللازم كما يقل عنه فى آن واحد . فهى تزيد عن اللازم لأننا بصدد بلد صغير . وهى أقصر من اللازم لأننا حيال مشكلة ضخمة . فقد شهدت . اسرائيل ثلاث حروب فى مدى عشرين عاما (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) . كما نشأت حالة مسمومة فى الشرق الأوسط ، ومأساة هائلة يعيشها اللاجئون ، واحتلال عسكري لجزء من الأراضى المصرية والسورية والأردنية .. ولكن هناك أيضا أعمال الاضطهاد الموجهة ضد اليهود والمذابح النازية التى لا تزال ماثلة فى الأذهان . فمجرد الكلام عن اسرائيل يثير خليطا من المشاعر ، وردود الأفعال العاطفية المتعددة على بلبلة العقلية الصافية ظاهريا حتى أنها تميل نحو ما يخالف التفكير السليم وبالتالى نحو الظلم .

يرفرف اليوم العلم ذو اللونين الأزرق والأبيض والمدموغ بنجمة داود على أرض تبلغ مساحتها ضعف الرقعة التى منحتها

الأمم المتحدة للدولة اليهودية في عام ١٩٤٧ • ولا يمكن تقدير الوزن الصحيح لهذه الحقيقة الواقعة الا بملاحظة عن كتب • لقد تمكنت من التجول في أنحاء اسرائيل ، وداخل الأراضي المحتلة ، ولم تغلق في وجهي الا المناطق التي لا يمكن ارتيادها الا بمصاحبة حرس عسكري ، أي مرتفعات جولان على الحدود السورية ، وممر الأردن وسيناء ، فيما بعد العريش ، في اتجاه قناة السويس • وقد صاحبني في جولاتي مرشدون يهود وعرب ، وسأروى ببساطة ما رأيت وسمعت •

على بعد عشرين كيلو مترا من تل أبيب يوجد مدخل اسرائيل الجوي المتمثل في مطار اللد ذي النشاط الدولي - تماما كما تشكل حيفا مدخلها البحري •

وتبدو المدن من الطائرة ليلا كإشارات صادرة من الأرض ، ننظر اليها دائما بنفس الاحساس بالدهشة • فكل شيء يتغير تماما بعد ساعات قليلة من الطيران • لقد كنت في أوروبا وفي الشتاء ، فاذا بي الآن في الشرق بعدوبة أمسياته • لست في آسيا تماما كما أني لست في أفريقيا ولكن في البحر الأبيض المتوسط بسواده الداكن الغريب رغم النجوم اللامعة • وتل أبيب تعني بالعبرية تل الربيع • ويقال انها كانت كثبان رمال يجرى وسطها نهر « العوجة » الصغير ، ولكنها الآن مدينة حديثة تعتبر أكبر مدن اسرائيل ، ويسكنها ٢٠٠ ألف نسمة •

كان يتعين علينا تأخير التوقيت ساعة بمجرد هبوطنا • وفي قاعة المطار الفسيحة كانت العائلات تتلاقى • فالبعض يستقبل أبناء خال قادمين من بروكسل أو من فيينا • ويتحدث القادمون مع مستقبليهم ويتبادلون الأخبار بأكثر من لغة منها العبرية واليديش والألمانية والفرنسية • على أن كلمة « سالوم » كانت تتردد باستمرار

وسط جلبة الترحيب بالقادمين ، وهى كلمة تعنى « السلام » .
 وقبل أن أترك فرنسا قال لى صديق مناصر لاسرائيل بلا أى
 تحفظات : « سترى بنفسك أن كلمة « السلام » هى التى ستسمعها
 فى أغلب الأحوال . . ولقد سمعتها بالفعل ولكنى لم آت هنا سعيا
 وراء الكلمات . كنت أريد أن أفهم الحقيقة التى تعبر عنها الألفاظ
 فالكلمات تستر الحقيقة أحيانا فماذا كانت تعنى بالضبط كلمة
 « سالوم » هذه ؟ »

لن أنسى أبدا هذه الليلة الأولى . كان التاكسى عبارة عن
 سيارة أمريكية ضخمة قديمة زودت بمقاعد اضافية . كنت أستقل
 وحدى تلك الكاديلاك التى فقدت أبهتها الفابرة . وعلمت فيما
 بعد أن تصرفى هذا كان ضربا من الرفاهية ، وأن الناس يشتركون
 هنا عادة معا فى ركوب التاكسيات . كانت المنازل المسطحة
 والمتشابهة تبرز أمامى فى الظلام . ومع الاقتراب من المدينة زاد
 عدد الاعلانات المكتوبة بحروف عبرية مضاعة بالنيون . كانت حركة
 المرور نشطة ، وكان هناك عدد كبير من مستوقفى السيارات ،
 وأغلبهم شبان وشابات من العسـكرين ، يرفعون الحنصر ،
 مستخدمين تلك الایماء المتعارف عليها دوليا للركوب . كان
 العسكريون فى أعداد هائلة .

كان السائق لا يتكلم سوى العبرية والبولندية . أما الانجليزية
 فكان لا يعرف منها سوى كلمة واحدة It is beautiful « شىء
 رائع » . والحق أن اضفاء هذه الصفة على مدينة تل أبيب ضرب من
 التفاؤل الساذج . كان السائق يعرف أيضا الحساب بالدولارات ،
 المفضلة لديه بكل وضوح عن الجنيئات الاسرائيلية (٧ جنيئات
 مقابل دولارين بالتحويل الرسمى . وان كانت القوة الشرائية
 لكليهما مختلفة الى حد كبير ٧ .

ووقع أول حادث لى فى مدخل الفندق . فترك فى نفسى احساسا عميقا بالضيق . وكثيرا ما ترددت فى روايته نعرض منافاته للياقة فى مفاهيم الفرنسيين . كن حامل الحقائق يدعى « عزرا » . وكان ودودا ، ثرثارا ، لطيفا ، ككل من قابلتهم هنا بوصفى زائرة عابرة . وقال لى موظف الاستقبال « هذا هو عزرا ، وهو سيرا ففك » . وأردف قائلا بعد ذلك مباشرة ، بلا أى فاصل آخر ، كما لو كان الأمر طبيعيا للغاية : « عزرا جاوئش فى صفوف جيشنا » . ونظرت الى عزرا الذى بدا عليه بعض الحرج . وقد أشعرنى هذا التقديم غير المتوقع بالضيق ، وخاصة عندما أكد لى موظف الاستقبال بابتساماة جديرة بأم تعدد محاسن ابتها التى بلغت سن الزواج : « وهو بالطبع مستعد لتكرار الأمر ، أليس كذلك يا عزرا ؟ » .

على أن انغلاق أبواب المصعد الأوتوماتيكية أعفت عزرا من الاجابة . وقد تحدثت معه فيما بعد ، وأستطيع أن أقول أن حماسه الحربى لم يكن طاغيا . غير أن هذه الحكاية أثارت قلقى على ضآلتها . لقد انتهت الحرب منذ ستة شهور أو بالأحرى ، لقد توقفت المعارك . فلماذا اذن هذا التحجيد بكل بساطة (لتكرار الأمر) ؟ .

من الواضح طبعا أن موظف الاستقبال غبى عن جدارة ، ولكن المسألة لا تنحصر فى هذه الحدود فقط . فما تيار العقلية الذى ينتمى اليه هذا الموظف وما القوة الحقيقية لهذا التيار ؟ هل يتمرغ رجل الشارع العادى فى نفس هذه المياه العدوانية أم أنه متشكك فى حقيقة أمرها ؟ .

تكره الشعوب الحرب بطبيعتها ، على أنه من الممكن خداعها

حول أسبابها وحول شرعيتها . فما رأى رجل الشارع الاسرائيلي في حرب الأيام الستة الحاطفة ؟ وما توقعاته بالنسبة للمستقبل ؟ . يقول التعداد الرسمي الذي تم في سبتمبر ١٩٦٦ أن اسرائيل تضم ١٠٠ ، ٦٤٣ ، ٢ نسمة من بينها ٧٠٠ ، ٣٣٣ ، ٢ يهودي . وتحتل تل أبيب المركز الأول بين المدن الكبيرة بسكانها الذين يبلغون ٤٠٠ ألف ، كلهم من اليهود تقريبا . وهى تسبق حيفا فى هذا المضمار اذ أن سكان حيفا يقدرون بحوالى ٢٠٠ ألف . ومن الصعب أن يقول المرء عن مدينة انها مميّزة . فالمدن كالنساء ، وهناك دائما محبوبون لا يرتاحون لمثل هذا الوصف . أما بالنسبة لى شخصيا ، فان تل أبيب لا تستطيع أن تصمد فى نظرى أمام حيفا الساحرة ، أو أمام اورشليم النبيلة .

لا شك أن تل أبيب مدينة تجارية حية ، بها عدد خارق للعادة من المحال المتلاصقة ، ومن الباعة الذين يعرضون سلعهم فى الطريق العام ، وبها حركة دائبة على الأرصفة ، وفى الشوارع ، وجرائد تصدر بخمس عشرة لغة وسيارات نقل عام تغص بالركاب ، ومقاه وأطفال يتدحرجون بين سيقان المارة . وهناك أيضا هذا الخليط الذى يؤكد - بشكل مناقض للظاهر - الشخصية الخاصة لهذه المدينة ذات الطابع المهجن الذى يجمع بين افريقيا ووسط أوروبا . وهناك السيدات المسنات اللاتى يقدمن الحلوى المكسوة بطبقة من الكريمة ، بينما تقوم عاملات يمينيات بعيونهن السوداء الواسعة التى تخفى الأسرار ، بتطريز الذهب والفضة . . ومن وجهة النظر المعمارية ، يشعر المرء بانعدام الابتكار الى حد ميثس . فهناك عدد من ناطحات السحاب المنبثقة وسط بركة » من المكعبات البيضاء الرتيبة المتشابهة . أما برج هرتزل ، وهو يحمل اسم مؤسس الصهيونية الذى يحظى بتكريم خاص ، فهو لا يتناسب اطلاقا مع كل ما يحيط به حتى انه يبدو كالزرافة

التائهة • وهناك فنادق كبيرة ، وإن كانت تفتقد الرشاقة ، ومنها فندق « دان » وهو كتلة ضخمة تبدو بالرغم من ذلك هزيلة بجانب الهيلتون الهائل المبني بروس أموال أمريكية على أرض كانت من قبل مدافن للمسلمين • وهكذا يخلق الواقع أحيانا رموزا تتخطى حدود الخيال أما فندق « ديبورا » ، فهو أكثر تواضعا ، وإن كان يتميز بطابع خاص ملفت للنظر : فهو يتبع من الناحية المالية جماعة دينية ، وهو الوحيد الذى يحترم بدقة قيود عطلة يوم السبت من بين كل الفنادق الراقية ••

ويوجد فى القدس مقر الحكومة والكنيسة (البرلمان الاسرائيلى) أما تل أبيب فهى المركز الاقتصادى والثقافى الأساسى • ففيها جامعة ومتاحف ونشاط مسرحى وموسيقى واسع • وتتسع قاعة « مان » الموسيقية لثلاثة آلاف مستمع وهى تقع فى نهاية شارع روتشيلد !! • والقاعة رائعة ، ولكنها نتاج الهبات المغدقة من الخارج شأنها شأن أغلب المنشآت انعام • وقد تبرع ببناء هذه القاعة بالذات أمريكى يدعى فردريك مان • وتل أبيب مقر السفارات أيضا • وهناك مكتبة ضخمة ملحقة بالسفارة الأمريكية مزودة بملوحات دعائية من بينها لوحة لتمثال الحرية الأمريكى ، وهو يعلن حق اسرائيل فى « حدودها التاريخية » •• التى جاءت فى التوراة • أما سفارة فرنسا فيقف أمامها من آن لآخر حاملو اللافتات الذين يحتجون بلا حماس على السياسة الديجولية •• وقد رأيت سيدة شابة تحولت الى امرأة « فى هيئة سندويتش » وعلى ظهرها لافتة مزخرفة بعدد كبير من علامات التعجب • وتقول اللافتة : « لقد طردتنى بالأمس يا ديوجول من الجزائر • فهل تريد فنائى اليوم !؟ » •

وفى الليل لا تغمض تل أبيب الا عينا واحدة • وتظل المطاعم

والمقاهى مفتوحة حتى ساعة متأخرة لتغرق الساهرين فى الفولكلور وأضواء النيون ، بل هناك أيضا جولات سياحية لمشاهدة تل أبيب فى الليل ، فتطوف المدينة مجموعات من الأمريكيين والكنديين الباحثين عن ملكات سبأ • ويتميز هذا النوع من النشاط بنفس القدر من الضحالة الذى يعرف به مثيله فى العواصم الغربية •

كل ذلك قائم ومتحرك ومتطور • ولكن يجب ألا نخدعنا المظاهر • فنسيج تل أبيب قوامه شيء آخر مختلف عن ذلك • لسنا هنا بصدد انتقالة عفوية • فقد نشأت تل أبيب من خلال يافا لتطغى عليها ثم تستوعبها • واسم يافا يذكر الفرنسيين بلوحة للمصور «جرو» تمجد بونا بورت اذ تصوره وهو يواجه بكل جسارة المصابين بالطاعون ، بوجه سافر وأسارير هادئة بينما يدير ضباطه وجوههم أو يخفون أنوفهم فى مناديلهم •• على أن يافا ترجع الى أصول بعيدة موغلة فى ظلمات التاريخ • وهى تعتبر من أقدم مدن العالم ويحتمل أن تنبع تسميتها أصلا من اللغة الفينيقية ومعناها « الجمال » •

ومن يافا استقل يونس قاربه ليقوم برحلته داخل جوف الحوت • وتقول الأسطورة ان فرساوس أنقذ اندروميذا من برائن وحش البحار على أحد صخور خليج يافا • وهكذا ترتبط الأساطير بهذا الميناء • الذى استخدمه الملك سليمان فى نقل مواد البناء للمعبد الذى أقامه • وعلى مر التاريخ تعاقب على هذه البلاد يهودا المكابى والرومان والصليبيون والفرنسيون والانجليز والأتراك ، فترك كل منهم أثرا له فيها الى أن وفد اليها فى عام ١٨٩٦ عدد من المهاجرين الاسرائيليين حيث أسسوا حينئذ يهوديين والمدينة لا تزال تحت الحكم العثمانى •

وفى عام ١٩٠٩ ، تبادر الى أذهان سكان الحين اقامة مركز

يهودى صرف على الساحل وخارج حدود المدينة ، واشتروا أراضى واستقروا نهائيا فى عام ١٩١٠ على تسميتها « تل أبيب » .

وتزايدت حركة الهجرة بعد هزيمة العثمانيين فى عام ١٩١٨ وفرض الوصاية البريطانية على فلسطين . وفى عام ١٩٢٣ استقلت تل أبيب اداريا عن يافا . وكانت الخلافات بين الطائفتين العربية واليهودية قد تفاقمت ، واتخذت طابعا عنيفا بتعدد السياسة الدعوية التى انتهجتها انجلترا . ووصلت الاصطدامات المسلحة بين الطرفين الى ذروتها فى سنة ١٩٤٨ عندما قامت فرق الكوماندوز الاسرائيلية بغارات ليلية على الأحياء العربية ، فنسفتها الواحد تلو الآخر . وفى ١٣ مايو ١٩٤٨ ، أى قبل أن تشن الدول العربية الحرب بصفة رسمية على اسرائيل بيومين ، كانت يافا قد تم احتلالها وهرب سكانها العرب بطريق البحر . ولا يوجد الآن فى يافا سوى خمسة آلاف عربى على أقصى تقدير . وفى الطريق من تل أبيب الى يافا التى لم تعد سوى ضاحية لها ، يجتاز المرء أراضى فضاء أقرب الى أن تكون منطقة حرام تغطيتها آثار التخريب وتشبه ما نراه فى المدن التى دمرتها الغارات الجوية .

وهناك أشياء أخرى يستشعرها المرء وهو فى تل أبيب . فهناك المهاجرون الهاربون من حركات الاضطهاد ومعسكرات الاعتقال وأفران حرق الأحياء ، وأيضا الرجال والنساء المجردون من أية ملكية والمطرودون من أوطانهم منذ عشرين سنة ليعيشوا كلاجئين فى أراض صديقة ولكنها غريبة على أى حال . ولكن هناك احساس يسيطر على كل أساليب التفكير وعلى كل التقديرات السياسية اذ يسود بين الناس هنا يقين متأصل وراسخ فحواه أن استخدام القوة مع العرب هو الأسلوب الواقعى الوحيد . ويسود هذا التفكير فى جميع أنحاء اسرائيل ولكنه ملحوظ بشكل خاص فى

هذه المدينة التي تكون مع القدس جناحي الواجهة التي ترمز
لإسرائيل •

واذا أبدى المرء تشككه في صحة هذا التقدير أو عارضه فإنه
يقابل فوراً باعتراض ساخط ، تصحبه السخرية أو إبداء الأسف ،
حسب اختلاف الحالات والأمزجة • وقد تتفاوت الآراء إلى حد ما ،
ولكنها تسير كلها في خط واحد ، اللهم إلا حالات نادرة • وقد
عبر لي عن هذا التفكير بكل عنف صاحب مكتبة بالرغم من أنه مثقف
ويتكلم الفرنسية باتقان يدعو للاعجاب • قال لي الرجل : « هؤلاء
القوم لا يجدي معهم سوى استخدام العصي » •

هل يعني ذلك أن كل العرب مبرهون من الخطيئة ؟ لا بالقطع
فالاندفاعات الملتبها للشقيري الذي تخلص منه الفلسطينيون أخيراً
بعد أن كان يدعى أنه يمثلهم ، والحدة الوحشية لبعض الرسامين
والمعلقين الازداعيين تعبر عن تصرفات غير مستولة وغير محتملة •
وقد لا يحق لنا أن نبرر ما لا يقبل التبرير ، ولكن يجب أن نتصور
في نفس الوقت ما يمكن أن تمثله بالنسبة للشعوب العربية
سياسة دولة تتجاهل بكل وقاحة مشكلة اللاجئين وتتفاخر جهاراً
بانتشار وفعالية شبكات التجسس التي أقامتها في الدول المجاورة
لها ، وتناور بكل الوسائل لاسقاط الحكومات التي لا تروق لها
وتسمح لوزرائها أن يعلنوا عن مطالبهم المتعسفة بضم أراض لهم
باسم الحدود التي رسمتها التوراة منذ ثلاث آلاف سنة •

ولكن الاسرائيليين لا يريدون أن يدركوا ذلك • فالتناقض
الأساسي عند أغلبهم ، هو أنهم يعيشون في قلب العالم العربي
داخل نواة مثبتة وسطه فيتصرفون لا كشركاء يساهمون في عملية
تطور مشتركة ولكن كغرباء يسيطر عليهم احساسهم بالتهفق على
جيرانهم • ويترتب على ذلك عدد من النتائج ، على رأسها الدور

الأساسى الذى يقوم به الجيش فى هذا البلد • كما ينبع من هنا أيضا الاعتقاد الراسخ بأن هجمات عام ١٩٥٦ و ١٩٦٧ كان لها ما يبررها ، وان كلمة « عدوان » تفقد معناها عندما يتعلق الامر بإسرائيل • ومن هذا التناقض ينبثق ذلك الترحيب المطلق الذى تصادفه الأفكار التوسعية والمغامرة التى ينادى بها رجل مثل « موسى ديان » •

وتعيش اسرائيل اليوم على عبادة حرب الأيام الستة • ويكفى المرء أن يتكلم مع الناس هناك ليلاحظ ذلك • فإذا ذهبت الى مطعم قدموا لك « سلطة موسى ديان » وخضروات « ٦ أيام من يونيو » وكوكتيل « الحرب الخاطفة » • ويصادف المرء نفس الشيء اذا ألقى نظرة على واجهات المحلات • ففي كل المكتبات أماكن مخصصة لعرض مطبوعات ذات عناوين وأغلفة موحية ، مثل « الحرب الخاطفة » و « الستة الأيام الحاسمة » و « الساعات الفاصلة فى حياة اسرائيل » و « ربح السيف » وهى تشيد جميعها بالانتصار وتفيض بتمجيد الجيش • وفى وسع المرء أن يشتري عند باعة التذكارات تماثيل صغيرة للجنرال ديان أو راين أو آلون أو غيرهم فى كل الأشكال مثل : منافض السجائر ، المناديل ، الملاعق الصغيرة ، الأكواب ، أدوات المائدة •• وشاهدت فى محل لبيع الملابس يقع فى وسط تل أبيب تمثالا لموشى ديان بالحجم الطبيعى يقف بين مجموعة من تماثيل عرض الملابس ، يحمل فى يده رقم ٦ وكأنه يقدم للجماهير موضة الشتاء •

ان اسرائيل تبحث عن الطمأنينة بالاستغراق فى التامل الذاتى لانتصارها ، ذلك لأن القلق الشعبى كان عميقا وحقيقيا • ومن هنا يبدأ التناقض • فهناك أشياء كثيرة يمكننا أن نجد تفسيرها لها لا فى ذلك القلق ولكن فى الاستخدام الواعى والمدروس لهذا القلق من جانب الرجال الذين يتولون زمام الأمور فى اسرائيل •

٢- القَدرِس..الآن

* * *

لم أر في حياتي سماء أكثر صفاء من سماء القدس ، وبخاصة في الليل عندما يكون الظلام نفسه شفافا دون أن يشوبه أى ضباب عالق بالجو ودون أن يعترض شيء الطريق بين النجوم والأرض . وتمتد هذه المدينة في جمال هادئ نبيل لتتموج على ايقاع تلالها الخضراء الداكنة . ويطلق العرب عليها مدينة « القدس » ويسمونها الاسرائيليون « أورشليم » :

وحتى يونيو ١٩٦٧ كانت القدس مقسمة الى جزأين . وكانت الأمم المتحدة قد قررت تدويل المدينة في عام ١٩٤٧ بالنظر الى طابعها الخاص الفريد ، وبالنظر الى سكانها المتميزين . ولكنها أصبحت نصف اسرائيلية نصف أردنية على أثر حرب ١٩٤٨ . وقد ألغيت الآن الحدود الداخلية في المدينة وأصبحت تحت السيطرة الكاملة لاسرائيل . ولم يتم ذلك دون عناء . فقد شهدت المدينة معارك عنيفة لا تزال آثارها المادية واضحة .

وبمجرد وقف القتال ، أعلنت حكومة أشكول بكل وضوح أن توحيد المدينة تحت لواء اسرائيل اجراء لا يمكن الرجوع فيه ، تبرره اعتبارات تاريخية وروحية تعتمد على نصوص التوراة وعلى التراث اليهودي . ولكن من الواضح أن السبعين ألف عربي الذين يعيشون حتى الآن في القدس - بعد أن تركها ثلاثون ألفا - لا يوافقون على هذا الرأي . فبالرغم من توحيد المدينة الا أنها تملئ على المرء الاحساس بأنها مدينة ممزقة تمزيقا عميقا لقد توقف القتال ، ولكن السلام لا يجد لنفسه مكانا لا في القسلوب ولا في المناخ السائد . ويحس المرء ذلك في الجو العام وفي آلاف التفاصيل

الصغيرة • ففي كل غرف الفندق التابع لجمعية الشبان المسيحيين القائم بالمنطقة الاسرائيلية ، يوجد منشور بالتعليمات الواجب اتباعها في حالة وقوع غارة جوية • ويوضح المنشور أنه توجد شمعة في درج الكومودينو لاستخدامها في حالة انقطاع التيار الكهربائي • وإذا أبدى المرء دهشته ، جاءت الاجابة مصحوبة بابتسامة مقتضبة : « لن يستمر الوضع على ذلك .. » •

فما هي « ذلك » هذه ؟ اذا كانت المدينة الاسرائيلية لا تزال على حالتها ، فان المدينة الأردنية تعيش في خفوت • فعندما يهب الليل لا يطرق الشوارع الا مشاة قلائل يسرعون الخطى بالرغم من انهاء حظر التجول • والمطاعم مقبضة وشبه خاوية ، ويسود الصمت فيها فور دخول المرء بصحبة اسرائيليين • فكل شيء هنا يوحي بأن المدينة تمسك أنفاسها وتنتظر •

لا تزال المدينة العربية المسورة تنبض بالحياة ، من خلال طرقها المتعرجة ، وشوارعها المسقوفة ، ودكاينها المتلاصقة ، وأطفالها الذين ينتشرون يركضون في كل مكان ، وحيرها الناهقة من أحواش متوازية وروائعها ونداءاتها وأسرار نوافذها الحديدية • على أن المرء يشعر أيضا بحالة عدم استقرار تسود الجو • لا شك أن السياح يتوافدون ، وتجارة « التذكارات » مستعدة للترحيب بهم وهي تقدم لهم مصنوعات من خشب الزيتون ومنسوجات مطرزة بالذهب وحليا • ولكن المرافقين لا يدلونهم الا على ظاهري الأشياء فقط • انهم لا يتوغلون في القدس الحفية والمتحركة تحت سطح معتم من المظاهر الكاذبة • وعلى كل ، لم يحضر سياح أجنب هذا العام ، حتى في أعياد الميلاد ، لزيارة الأماكن المقدسة • أما السياحة الداخلية فقد نمت اذتوافد الناس من كل أنحاء اسرائيل على

القدس ، ولكن هذه السياحة لا تقدم البديل لا من حيث العملات ولا من حيث الدعاية •

وقد بدأت عملية تهويد القدس على نطاق واسع • وأعلن رئيس الوزراء بنفسه خطط الحكومة بهذا الصدد • وهي تتضمن سياسة إسكان تهدف الى توطين الأهالي اليهود على نطاق واسع ونقل مقر الماخام الأكبر ، وهو أعلى سلطة دينية ، من تل أبيب الى القدس • وتشرف الشرطة على المستشفى الاسلامي • وقد أقيم بالمدينة احتفال كبير بمناسبة العيد السنوي للشرطة • ولا يخلو هذا الاحتفال من مغزى • وقد خصصت جريدة «جروساليم بوست» مقالا افتتاحيا للشرطة ومرشديهم (الذين يسمون في أى مكان آخر « الوشاة ») لما بذلته من جهود من أجل اتمام عمليات القبض •

وبمناسبة الكلام عن توحيد القدس ، كتب شاعر عربي قصة جديدة حقا بالتأمل • فقد دخل السجن زنزانة رجل أمضى في السجن عشرين عاما ، وقال له « لك أن تفرح ، ستتمكن من رؤية اخوتك » فصاح السجين : « حقا ؟ هل سيفرج عني اذن ؟ » غير أن السجن أجابه : « لا ، ولكن اخوتك سيفقدون عليك في السجن » •

ان مشهد حائط المبكى مخيب لآمال كل من لا ينظر اليه من خلال الايمان • فالحائط من حجارة غير متناسقة لفحتها الشمس • وهو مقسم الى ثلاثة أجزاء : الجزء الأوسط وهو الأكبر مخصص للرجال ، والجزءان الجانبيان مخصصان للنساء • وتوجد حواجز عند المدخل ويقوم جندي شاب بتوزيع أعطية للرءوس من الورق الأسود اللون على الذين لم يفكروا في احضار ما يلزم لتغطية الرأس • وقد ألقى هذا الجندي نظرة لا تنم عن الود نحو صديقي الذي يرافقني ولكنه تركنا نمر • وكان أحد العسكريين المتولين

الحراسة قد رفض ادخال جماعة من السياح الى المكان ، بحجة وجود أفراد من غير اليهود بينهم . وقد ألغيت هذه التعليمات بعد سلسلة من الاحتجاجات نشرتها جريدة « جيروساليم بوست » الموالية للحكومة على طول الخط .

ومع أن هناك أناسا كثيرين يزورون حائط المبكى إلا أنهم لم يعودوا كالجماهير التي تدفقت في بداية الأمر . فقد وقفت اسرائيل بأسرها أو أغلبيتها على الأقل أمام هذا الجدار بعد أن مر الجيش أمامه . والواقع أن المواطنين الاسرائيليين كانوا لا يستطيعون دخول المنطقة الاردنية من القدس حيث توجد الأماكن المقدسة الخاصة بالأديان الثلاثة بسبب عدم اعتراف البلاد العربية بدولة اسرائيل . وقد جاء البعض بدافع من الشعور الديني الصادق . وهؤلاء يقيمون الصلاة وقوفا ويقبلون الحجارة . ووجودهم هنا يتمشى مع وجود مؤمنين آخرين ينتمون الى عقائد أخرى ، ويؤدون شعائر مختلفة في جامع عمر أو في كنيسة القبر المقدس . على أن عدداً كبيراً من الذين حجوا الى حائط المبكى لم يأتوا في الواقع إلا بدافع من الاحساس الوطني . لقد اعتبر الاسرائيليون القدس عاصمة لدولة اليهود حتى في أيام التقسيم . ويوجد بالمدينة مقر الحكومة والبرلمان . ويثور الاسرائيليون عند مجرد التشكيك في ملكيتهم لها . فالقدس هي صهيون ، والعودة الى صهيون هي الحلم القديم للطوائف اليهودية . المنتشرة في انحاء العالم ، اذ يرددون : « العام القادم في القدس . . »

وتخفى هذه المثابرة الدوابة مشكلة مخيفة ذات تعقيدات سياسية ضخمة .

لقد قامت الصهيونية على فكرة أرض الميعاد والعودة الى

اسرائيل البلد الذى عينه الله لابراهيم ، ووعد به أعقابه والرجوع الى أرض كنعان التى تتوجها أورشليم مدينتها المقدسة .

وقد كتب تيودور هرتزل ، المؤسس الحقيقى للصهيونية الحديثة فى مذكراته فى بداية هذا القرن ، كتب يقول بخصوص ضرورة مد حدود الدولة اليهودية المرتقبة حتى قناة السويس : « يجب ان يكون شعارنا : فلسطين داود وسليمان » . وقد أوضح هرتزل فى فقرة أخرى الحدود الجغرافية للدولة التى يتمناها : « المساحة : من نهر مصر (النيل) الى الفرات » . وقد قام المؤتمر الصهيونى الأول المنعقد فى مدينة بازل سنة ١٨٩٧ ، على أسس لم يتنكر لها أحد حتى انوقت الراهن ، بل ان هناك على العكس فيض من التصريحات الرسمية المؤكدة لقرارات المؤتمر . وفى عام ١٩٥٥ حرص الكتاب السنوى لدولة اسرائيل على ايراد الملحوظة التالية : « ان انشاء الدولة الجديدة لا يلغى بأى حال من الأحوال الحدود التاريخية لأرض اسرائيل . وعلى أثر حرب ١٩٥٦ أنكر بن جوريون حدوث أى عدوان ، لأن سببها فى مفهومه « ترتبط تاريخيا بفلسطين » ، وانه لا يمكن أن يرتكب الانسان عدوانا على نفسه .

وقد ولد تيودور هرتزل فى بودابست عام ١٨٦٠ . وتوصل الى الصهيونية بعد أن حضر محاكمة دريفوس فى باريس كمراسل لجريدة « نيوفرى برس » النمساوية وقد أثارته هذه المحاكمة وهزته حتى دمغت حياته بأسرها . ويجب أن نتذكر أن هذا التحول حدث فى فترة كانت الظروف تسمح فيها للكاتبة الروائية الفرنسية « جيب » أن تجيب على المحكمة من منصة الشهود عند سؤالها عن مهنتها ، فتقول : « معادية للسامية » . ومنذ هذا العهد زادت ألوان العذاب التى لاقاها اليهود مع جرائم الهتلريين ، مما أضاف مزيدا من المأسى الى ملف القضية ولكن يجب ألا تتصور هذه

الدولة اليهودية التي قالت في اعلان تأسيسها انها « ستساهم في تقدم الشرق الأوسط في مجموعه » أن هذا التقدم يتمثل في أكثر من توسعها الذاتي على حساب جيرانها •

وتختلف وجهات نظر الأحزاب الداخلية في التآلف الوزاري الحالي في اسرائيل حول مستقبل هذه الدولة ، ولكن القوى القائدة للدولة تؤيد بشكل أو آخر التوسع في أراضي اسرائيل ، سواء باسم « الحقوق التاريخية » أو باسم « الحدود الآمنة » ويتضح ذلك من التصريحات المتعددة على اختلاف لهجاتها • ويكرر كل من السيد أشكول والسيد ايبان ، وزير الخارجية « نحن لا نريد أن نتوسع في أراضينا » • وقد ردد ذلك أخيرا سفير اسرائيل في باريس باسم حكومته • ولكن هناك تعقيدا لا بد وأن يصحب هذه التصريحات فكل هؤلاء المتكلمين يعلنون بنفس القوة أنه يستحيل « العودة » الى أوضاع ما قبل يونيو ١٩٦٧ « عند الإشارة الى مرتفعات جولان وشبه جزيرة سيناء ، بل وحتى الضفة الغربية لنهر الأردن • ولا داعي للكلام عن القدس التي تم ضمها بالفعل بتحد صريح لقرار مجلس الأمن الاجماعي الذي ينص على الجلاء عن كل الأراضي المحتلة • ومن هنا يحق لنا أن نتساءل عما يمكن أن نتوقعه في المستقبل ...

تريد حكومة اسرائيل أن تستغل الى أقصى حد ممكن مركز القوة الذي تتمتع به اليوم ، معتمدة على تفوقها العسكري ، وعلى تأييد الولايات المتحدة وعلى مساندة المنظمات الصهيونية النشيطة والفعالة في أنحاء العالم • وكل شعب يريد السلام ، ولا يختلف في ذلك الاسرائيليون عن غيرهم من الشعوب • واني لا تذكر الآن امرأة قابلتها في « ديمونة » بالقرب من البحر الميت حيث يقيم عدد كبير من المهاجرين الوافدين من شمال أفريقيا ، كانت تكلمني بكل توجس عن الحرب • وكانت تبدو استياءها من حديث أدلى به بن

جوريون في الاذاعة • كانوا قد سألوه ما هي توقعاته بالنسبة للمستقبل ، فأجاب « الحرب » ، وسأله المذيع مرة أخرى « وماذا بعد » فأجاب بن جوريون « وحرب أخرى » • كانت المرأة تنظر لأطفالها الثلاثة والدموع تطف من عينيها ، وهي تتكلم • ولكن عندما سألتها عن الطريق المؤدى الى السلام لم تجد سوى كلمات الازدراء والعنف •

والحكومة نفسها ، تعي تماما ما تريد • وكانت تعرف بالأخص حقيقة قوى الطرفين • كانت أجهزتها السرية التي تتفاخر بها بلا تواضع وتقول عنها صحافة اسرائيل انها « أحسن أجهزة مخابرات في العالم قاطبة » قد قدمت لها معلومات دقيقة وكاملة • ولم تعلن حرب الأيام الستة الا لأن القيادة العليا الاسرائيلية كانت تعرف بلا أى لبس ، ما ستواجه به وأين ستواجه به • ويثور الاسرائيليون اذا قيل لهم انهم كانوا غزاة معتدين ، ولا يتصورون أنفسهم الا في هيئة داود الصغير المنتصر على المارد جالوت الشرير ، بفضل شجاعته وذكائه وانتماؤه الى الشعب المختار • ولا شك في أن هذه النظرية على جانب كبير من المثالية • فعندما نكون بصدد حرب من هذا النوع ، وبصدد جيش حديث متفوق من حيث التدريب ، ومعتمد على عنصر المفاجأة ، فان فرص الانتصار تكون في جانبه في أغلب الأحوال • وقد قال لى أحد الضباط المتصلين عن قرب بأركان الحرب : « كانت لعبة بوكر ، ولكننا استطعنا أن نرى أوراق العدو » •

يقضى كل مواطن اسرائيلي جزءا من حياته في الجيش ، ولا يعفى من ذلك الا في حالات نادرة • وتشمل الخدمة العسكرية الرجال والنساء ، وهي تمتد ٢٦ شهرا للشبان و ٢٠ شهرا للشابات ولا يستثنى منهن الا الفتيات المنتميات الى الأسر اليهودية الشديدة التمسك بالتقاليد الدينية ، وبناء على طلبهن • ويجدر

بنا أن نذكر أن مدة الخدمة زادت ستة أشهر لمواجهة الاحتياجات الجديدة التي فرضتها المناطق المحتلة . ويتفق سن أداء الخدمة مع انتهاء الدراسة الثانوية . وتؤدي النساء المتزوجات الخدمة شأنهن شأن بقية المواطنين ، ولا يعفيهن من ادائها الا انجاب الأطفال . ولا يتمتع بالتأجيل الا عدد محدود للغاية من طلبة الجامعة العبرية بالقدس والكلية الفنية (تكنيكون) في حيفا .

ويظل الرجال تابعين لقوات الاحتياط حتى سن التاسعة والأربعين . أما النساء اللاتي ليس لهن أبناء ، فيبقين في الاحتياط حتى الرابعة والثلاثين . ومن جهة أخرى يلتزم كل أفراد الاحتياط بالخدمة مدة ٣٠ يوما متوصلا ويوما كاملا كل شهر أو ثلاثة أيام متواملة كل ثلاث شهور . وفي الحالات الاستثنائية ، كما هو الوضع الآن ، يمكن استدعاء أفراد الاحتياط حسب احتياجات القيادة . والغرض من فترات الاستدعاء « الحفاظ على المستوى العسكري ورفعته والتدريب على استخدام الأسلحة الجديدة » . وفي فترات السلم ، تجري تدريبات على التعبئة على فترات متقاربة . وتوجد تحت تصرف كل وحدة احتياطية مخازن الأسلحة والذخائر والمعدات المختلفة الخاصة بها .

وهكذا تسير الحياة الاسرائيلية كلها على إيقاع العسكرية فلا يفلت منها أى مواطن . والجيش قادر على استيعاب أى مواطن فى أى لحظة وعلى إخضاعه لقوانينه . وهو يقوم بدور كبير فى التكوين الذهني والأخلاقي للفرد ، باعتباره استمرارا للمرحلة الدراسية ، ويرمى الى تطويع الفرد وطبعه بعقلية الدولة . ويخضع الجيش أفرادا للقانون الديني ، شأنه فى ذلك شأن الدولة . فهناك معبد لكل تشكيل عسكري ، كما يتسلم كل جندي نسخة من التوراة بوصفها « التراث المشترك الذى تقوم على أساسه وحدة الأمة » ، على حد قول المصادر الرسمية . ومن جهة أخرى ، يلتزم

كل جندي بأن يأكل « كاشير » وأن يخضع لقيود الطعام اليهودية المطبقة في كل مطابخ الجيش .

لاشك أن الجيش الاسرائيلي يميل الى تفضيل القوة على المفاوضة ، والهجوم على المناقشة . ويحتل الجيش وقواده مركزا متضخما ، وليس سرا على أحد أن هناك على الأقل جنرالين وهما ايجال آلون وزير العمل وموشى ديان وزير الدفاع يسعيان الى الحلول في رئاسة الوزارة . على أن وجود أكثر من طامع في هذا المنصب يقلل من فرص وصول القادة العسكريين اليه . ولكنهم يفكرون في الأمر ، وهم متمتعون بشعبية واسعة وبالأخص ديان ، وكل تدهور في الموقف يكون في صالح القادة العسكريين .

أما الجنرال ألوف حايم بارلييف الذي حل في ديسمبر الماضي محل الجنرال رابين في قيادة أركان الحرب ، فقد أعلن يوم تعيينه في منصبه الجديد أنه « لا يستطيع أن يتصور عملا يرضى الانسان بقدر ما ترضيه الخدمة العسكرية في هذا البلد » . وبعد أن أشار الجنرال بحزن الى المصير البائس لجنود الجيش السويسرى الذين لن تواتيهم فرصة القتال ، راح يعدد الحروب التى خاضها بنفس اللذة التى تذكر بها فتاة عدد المرات التى قابلت فيها شبانا بناء على موعد سابق . وأنا أذكر ذلك لأن الجنرال بارلييف كان قد بدأ حديثه بقوله : « أنا لست من أنصار العسكرية ، ولكن .. » .

وتؤكد دولة اسرائيل في نفس الوقت أنها ليست دولة عسكرية ودليلها على ذلك أن كل جنودها أو أغلبهم من المدنيين . وإذا كان ذلك هو الأساس فانه بوسعنا أن نعكس الآية وأن نقول أن كل المدنيين في اسرائيل أو أغلبهم جنود و « لكن .. » كما يقول الجنرال بارلييف . . .

ولما كانت اسرائيل تحرص على أن يكون جيشها على أعلى

مستوى فى استخدام الأسلحة الحديثة للغاية فانها تهتم عن كئب
بالمسائل النووية • وهى تحتفظ جيدا بأسرارها فى هذا المجال •
وقبل أن تتخذ الحكومة الفرنسية موقفها الراهن المعروف ، كانت
هناك اتصالات وأشكال من التعاون مؤكدة - وينطبق ذلك على
ألمانيا الفدرالية أيضا • فالحصول على أسلحة ذرية لم يعد مقصورا
على الدول الكبرى •

وعندما يذهب المرء الى ميناء ايلات على البحر الأحمر ، فانه
يلاحظ على الطريق مصنعا (أو ما يشبه ذلك) منعزلا فى صحراء
النقب • وهذه المنطقة عسكرية بحتة لا يمكن الاقتراب منها • وإذا
وجهت السؤال الى من يستطيعون تقديم الاجابة ، فانهم يراوغون
ويحاولون الظهور فى سـيـمـاء جيمس بوند • وقد قال لى أحد
الضباط : « أستطيع أن أقول لك ما هو وأن أقول لك ما ليس هو •
انه مبنى عسكرى ، ولكنه ليس ذريا » • ولم تقنعنى كلماته ••
وهناك اشارات ، لا تكاد تستتر ، صادرة من الدوائر المطلعة تسمح
للمرء بأن يؤكد أن اسرائيل متقدمة للغاية من حيث المنشآت
والدراسات • ولكن هل تملك القنبلة الذرية ؟ وهل هى قادرة على
صنعها ؟ اننا ندخل هنا فى مجال الفروض المعقولة ، مما يزيد من
المتاعب التى يعانيتها الشرق الأوسط •

٣- الدين والدولة

يقوم سراى « الكنيست » ، برلمان اسرائيل ، على أحد تلال القدس على مقربة من الجامعة العبرية والمتحف القومى • وهو بناء رائع الجمال ، ذو خطوط نقية ويتميز فى الداخل بالأناقة والفخامة الشديدين • وقد شارك شاجال بنصيب وافر فى زخرفة المبنى • ويوجد به نوافذ من الزجاج المعشق وأعمال نحت ونسج وأوان فخارية وأعمال من الخشب والنحاس المنحوت : فالمكان جميل وفخم • ويرجع كل ذلك أيضا الى سخاء أسرة روتشيلد •

وتحتل الصدارة فى قاعة اجتماعات النواب (وعددهم ١٢٠ فقط) صورة لتيودور هرتزل مؤسس الصهيونية • وجلسات البرلمان علنية ، ولكن حضورها يستلزم ترك المعطف والحقيبة فى غرفة الملابس • أما السيدات ، فيجب أن يتخلين عن حقيبة اليد • • أو أى شئ آخر يمكن أن يخفى فيه سلاح أو قنبلة • وتخضع الأماكن المخصصة للجمهور لرقابة مستمرة من جانب الحجاب • وهى معزولة على أى حال عن مقاعد النواب بزجاج لا ينفذ منه الرصاص يمتد من السقف حتى الأرض •

وتتبع اسرائيل نظام الديموقراطية البرلمانية ، ولكنه يختلف عن النظام القائم فى فرنسا ، اذ يقدم كل حزب ١٢٠ اسم مرشح فى قائمة تشمل النطاق القومى ، من أجل ال ١٢٠ مقعد ، أى أن كل نائب لا يمثل مدينة أو جهة معينة ، بل يمثل حزبا من الأحزاب على الصعيد القومى • وهكذا يحتل كل حزب عددا من المقاعد يتناسب مع حجم الأصوات التى حصل عليها •

وللحزب الشيوعى الاسرائيلى ثلاثة نواب « يهودى وعربيان » :

ماير فيلنر وتوفيق طوبى وأميل حبيبي • وقد شن الجنرال ديان بالذات حملة عنيفة من أجل تطبيق نظام التصويت على نطاق الدائرة ، مما يؤدي من الناحية العملية الى الغاء أى معارضة فى الحياة التشريعية بالنظر الى الأوضاع الخاصة القائمة فى اسرائيل •

ويسيطر على الائتلاف الوزارى الحالى حزب العمال الاسرائيلى الذى تكون فى منتصف يناير ١٩٦٧ بتوحيد الأحزاب الثلاثة ، وهى حزب الماباى الذى ينتمى اليه السيد أشكول ، وحزب أشدوت هافودا وحزب رافى • ولا مجال للخوض فى متاهات هذه الأحزاب فى حدود هذا الكتيب • ولذا نكتفى بأن نقول أن هذه الوحدة الأخيرة تصحح أوضاعا كان السيد بن جوريون قد ساهم بنصيب كبير فى خلقها ، لمحاربة عدوه اللدود ليفى أشكول • فعندما انفصل بن جوريون عن حزب الماباى (أقوى حزب فى اسرائيل ويسيطر بالأخص على الهستدروت) وأسس حزب رافى فى عام ١٩٦٥ ، ضم الى صفوفه رجالا من أمثال موشى ديان الذين كانوا يتصورون أن أطماعهم ستتمو وتزدهر بعيدا عن هياكل الحزب القديم الذى يتقاسم مناصبه الرئيسية قادة عقدوا العزم على ألا يتركوا مكانا للذئاب الناشئة • ولكن التقدير جاء خاطئا • فالحياة السياسية الاسرائيلية متداخلة مع الأجهزة الانتخابية للأحزاب التقليدية ومقيدة بها حتى أن الوصول فى المجال السياسى يعد أمرا مستحيلا خارج نطاقها • وقد أدرك ديان هذه الحقيقة بسرعة ، وهو الذى يرمى الى الاستيلاء على الحكم بوسيلة أو أخرى ، ولذا فقد سارع الى الدعوة الى جمع الشمل ، وجر وراءه كل نواب هذه المجموعة تاركا بن جوريون يزار وحده على الشاطئ • ولا يزال الزعيم العجوز متمتعا بتقدير واحترام كبيرين بين مواطنيه ، ولكنه أقرب الى أن يكون أنرا تاريخيا من أن يمثل قوة سياسية •

وتتضمن الوزارة ، الى جانب الأحزاب الثلاثة المسكونة لحزب العمال الجديد (٥٥ نائبا في البرلمان) ، « المتدينون » ، وحركة « جاهال » والمابام . ويتميز أعضاء الحزب القومي الديني بالتطرف الرجعي والاسراف في الدجل السياسي . لقد استمعت الى وكيل وزارة الداخلية ، مساعد السيد شابيرو وهو يتحدث الى بعض الطلبة في القدس . كان يضج فوق رأسه الطاقية السوداء الصغيرة الشعائرية وكان يبدو كثيبا بلحيته الصغيرة المدببة . أما خطابه فكان يفيض بالضحالة الفكرية في نقطتين :

النقطة الأولى هي الانكار التام لوجود فلسطين عربية اذ قال : « كل العرب في جميع أنحاء اسرائيل يعيشون على اراضي اسرائيل الشرعية » . أما النقطة الثانية فهي في مجمل قوله : « لقد عشنا عشرين عاما دون أن نعترف بنا جيراننا ، وبحدود أرحب من تلك التي منحناها ايانا منظمة الأمم المتحدة . وبوسعنا أن نعيش عشرين عاما أخرى بالأراضي الجديدة التي حصلنا عليها دون أن نعترف بنا أحد » . أما النتيجة التي توصل اليها للأسف وسط عاصفة من التصفيق المدوي ، أثارها ٦٠٠ شاب ، فهي : « يجب ألا نتنازل عن أى شبر من الأراضي » . ولما كان أحد الحاضرين قد سأل على استحياء : « وماذا بعد عشرين سنة أخرى ؟ » أجاب رجل الدين المبجل : « سنسحقهم مرة أخرى » .

وتتضمن حركة «جاهال» الأحرار المستقلين وحزب حيروت . وقد انبثقت هذه الحركة بشكل مباشر من « الايرجون » وهي منظمة ارامية يهودية اغتالت ، فيمن اغتالت ، الكونت برنادوت وسيط الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨ - والورقة التي تلعبها هي « الحدود التاريخية » الذائعة الصيت . وهي تمجد الاستخدام السافر للعنف اعتمادا على « انجذاب » التوراة التي استبدت بكيانها . وتحتل

حركة جاهال ٢٦ مقعدا فى الكنيست بينما لا يملك حزب مابام سوى ٨ مقاعد .



أما وضع حزب المابام « الحزب الاشتراكي » فهو غير مريح . يعيش هذا الحزب على التنوع القائم فى صفوفه . فجناحه الأيسر يتجاهل باستحياء ما يفعله جناحه الأيمن . وقد قال لى أحد نواب هذا الحزب : فى استطاعة المرء أن يفكر عندنا كما يحلو له . فأننا ، مثلا ، غير متفق على الإطلاق مع قيادة الحزب وبدأ لى أن هذا الوضع لا يقلقه أبدا . فحزب المابام يؤيد الوزارة التى يشترك فيها وهو يصوت فى صفها فى البرلمان ولكنه ينتقدها خارجة . ولما كان هذا الحزب موزعا بين اتجاهات مختلفة ، فهو قادر على أن يتشكل فى صور متباينة أمام من يتعامل معهم . فهو يمنح اليسار ما يريد ويزود اليمين بما يحقق له الطمأنينة . وحزب المابام متغلغل فى حركة « الكيبوتز » ويحاول بذلك أن يحقق التوافق المستحيل بين الاشتراكية والرأسمالية وبين الفكر القومي المتطرف والفكر التقدمي . ولا يقول هذا الحزب فى تعريفه لنفسه انه « حزب صهيوني » بل « نصير تجمع الشعب اليهودي » . على أن وزراءه يجلسون بجوار ديان وبيجين .

ويضم المابام كل الأصناف بين صفوفه ، ففيه الانتهازيون والديمقراطيون المخلصون ، الباحثون حقا عن حل مشرف للنزاع اليهودي العربى ، والذين يتظاهرون فقط بالرغبة فى الوصول الى هذا الحل . وكثيرا ما يتردد الكلام عن الروح الدولية عند حزب المابام ، ولكنه (أى هذا الكلام) لا يلقى ترحيبا من انسان تشبع حقا بالعقلية الدولية .

وقد وجهت سؤالى بخصوص تنفيذ قرار مجلس الأمن ، والجلاء

عن الأراضي المحتلة لرجال يعتبرون أنفسهم من أقصى يسار حزب المابام ، فلم يوافق واحد منهم على ذلك بشكل كامل . كانت الموافقة مرهونة دائما بشروط ومشمولة بتحفظات . . والحق أنه من العسير الحصول على إجابات واضحة من حزب المابام المحاصروسط تناقضاته . وهو يعاني حاليا من تدهور نفوذه مما يؤكد مرة أخرى أن التذبذب نادرا ما يكون مجديا .



وقد مر الحزب الشيوعي بتجربة قاسية فقد توصل جناح منه (جماعة ميكونيس - سينية) الى تقويض وحدته بعد أن خرج على فكرة الاممية البروليتارية ، وعلى تضامن العمال اليهود والعرب ، وعلى الصداقة مع الاتحاد السوفيتي . وقد أدى هذا الانقسام الى اضعاف الحركة العمالية الاسرائيلية بأسرها ، وساهم في توسيع الهوة بين اليهود والعرب . ويوجد حاليا في اسرائيل حزبان شيوعيان اسرائيليان بالاسم ، أحدهما حزب جماعة ميكونيس - سينية والآخر يتولى سكرتاريته العامة الرفيق ماير فيلنر . وحزب فيلنر هو الحزب الوحيد في اسرائيل الذي يكافح حقا من أجل المصالح الحقيقية لشعب اسرائيل ومن أجل الحفاظ على السلام في الشرق الأوسط ، بينما أيد حزب سينية عدوان يونيو ١٩٦٧ . ويحتاج المرء الى قدر كبير من وضوح الرؤية والشجاعة للدفاع عن الموقف السليم وسط جو التطرف القومي السائد في اسرائيل . والشجاعة المطلوبة أدبية ، ومادية في آن واحد ، ففي ١٥ أكتوبر الماضي تسبب قاتل شاب في اصابة ماير فيلنر بجراح خطيرة في محاولة لاغتياله بسكين أمام منزله بتل أبيب .

على أن الحزب الذي يقوده ماير فيلنر ضعيف التأثير للأسف بين الأوساط الاسرائيلية المشبعة بالعقلية الصهيونية ، ولكنه يتمتع بتأثير عميق بين العرب . على أن حرص هذا الحزب الشديد على الحفاظ

على طابعه اليهودى العربى وعلى علاقاته الأخوية مع الحركة العالمية يلقي ضوءا متميزا على احتمالات المستقبل وأبعاده . ولذا لا يوجد ما يدعو الى البحث فى أى مجال آخر عن أسباب الحقد المجنون الذى تضرره له بعض الأوساط الاسرائيلية .

تنفى دولة اسرائيل عن نفسها أنها حكومة دينية . ومع ذلك فإن حياة المواطنين فيها مدموغة بالدين . فاعلان الاستقلال مشرب بالديانة كما أن مؤسساتها الدينية وعاداتها وقوانينها الدينية تفرض نفسها على كل شيء بل ولا يوجد سواها فى أغلب الأحوال .

فمن المستحيل أن يتزوج المرء زواجا مدنيا فى اسرائيل . فاليهودى غير المتدين مجبر على عقد قرانه أمام حاخام ما لم يكن على درجة من الثراء تسمح له بالسفر الى قبرص أو أى دولة أخرى يوجد فيها تشريع علمانى . وإذا كان أحد المتقدمين للزواج غير يهودى فإن وضعه هذا يثير مشاكل لا يمكن تخيلها فى فرنسا ، خاصة اذا كانت المرأة يهودية لأن الانتماء الى اليهودية ينتقل عن طريق الأم . فطبقا للقانون ينبج غير اليهودى المتزوج من يهودية أبناء يهودا ولكن اذا حدث العكس فإن الأطفال لن يكونوا من أفراد الشعب المختار ، وتلك مأساة حقيقية فى حدود المفاهيم الاسرائيلية . ويبرز الطابع الدينى للدولة بقوة ويؤكد عن وصى حتى أنه يتخطى حدود المظهر القومى . فاعلان الاستقلال يضع على نفس المستوى الطابع « الروحى » والدينى لاسرائيل مع الطابع « القومى » للعودة الى أرض الميعاد . وقد أورد كتيب رسمى بعنوان « الحياة الدينية فى اسرائيل » أورد مثلا يهوديا قديما يقول : عندما قاس الله كل المدن . لم تجد سوى اورشليم جديرة بأن تضم المعبد لقد قاس الله كل البلاد ووزنها فلم يجد أفضل من أرض اسرائيل للشعب

اليهودى . فالمواطن اليهودى الذى يقبل الا يعتبر أبناؤه يهودا يستبعد أبناؤه بهذه الطريقة من حياة الأمة .

ومن هنا فان قصة الفتاة «جاليا بن جوريون» حفيدة بن جوريون غنية عن كل بيان . فقد اعتنقت أمها ماري ، زوجة ابن الزعيم الصهيونى ، الديانة اليهودية وهى فى لندن منذ اثنين وعشرين عاما مضت . ولكن الحاخام الاكبر لمدينة حيفا لا يعترف بوثيقة اعتناقها الدين اليهودى ، وبناء عليه فهو يعترض على زواج الفتاة ، وعمرها هى أيضا اثنان وعشرون عاما ، بضابط من المظليين فى الجيش الاسرائيلى . ولكى تحصل «جاليا» على حق الزواج من الرجل الذى تحبه ، فانه يتعين عليها أن تعتنق اليهودية . كما يجب أن تعتنق أمها أيضا الديانة اليهودية بشكل رسمى أمام حاخامات اسرائيل .



يمكننا أن تقدم العديد من الأمثلة على السيطرة الدينية على كل التصرفات اليومية فى الحياة . فالطلاق دينى ، شأنه شأن الزواج . وقد عرفنا من قبل أن الجندى الشاب يقع فورا تحت السيطرة الصارمة للحاخامات . وفى حالة التقاضى ، يكون من حق الطرفين المتنازعين المنتهيين الى نفس الطائفة الدينية أن يتقاضيا أمام محكمة الطائفة بالتراضى بينهما ، بدلا من اللجوء الى القضاء المدنى . وتطبق التعليمات الغذائية ، وقيود يوم السبت بحذافيرها فى القوات المسلحة . على أن الالتزامات التى يفرضها احترام طقوس يوم السبت تصطدم بقوة بضرورات الحياة الحديثة حتى ان الأمر استدعى البحث عن بعض الاجتهادات . فمن المحرم مبدئيا استخدام وسائل المواصلات أثناء فترة محدودة من يوم السبت . ولذا لا توجد اتوبيسات فى هذا اليوم بتل أبيب ، ولكن التاكسيات الجماعية تنشط (وأسعارها أغلى بالطبع) أما فى حيفا (وأغلب سكانها من

العمال) فتستمر الاتوبيسات في دورانها . وتهتسم السلطات الدينية أساسا باغلاق المقاهى والمطاعم ودور السينما والمسارح . الخ . ولكن هناك استثناءات في هذا المجال أيضا . كان في أمكاني مثلا أن أتناول الشاي أو القهوة بشكل عادى في الفندق الذى أقيم فيه . على أن غلى الماء للحصول على بيضة مسلوقة يعتبر ضربا من الكفر .



والهدف النهائى من كل هذه القيود ليس احترام تعاليم الدين فى حد ذاتها ، والا لما لجئوا الى الاجتهادات ، بقدر ما هو تذكير المواطنين الاسرائيليين دائما وفى كل مكان أنهم ينتمون الى اليهودية . ويتم ذلك منذ دخول المدرسة .

فاذا انتهى الى جيل من الشباب وصل الى الوعى الانسانى والسياسى وهو مواجه بالفظائع الفاشستية . وانى لاذكر الاطفال اليهود الذين كانوا يساقون بالجملة فى عربات النقل ليرسلوا الى معسكرات الابداء ، وهم أبرياء ، رقيقون ومحرمون من أى امكانية دفاع عن النفس . . ولكن مما يثير الالم حقا انه بدلا من أن تثبت فى أذهان الاطفال الاسرائيليين الروح الانسانية والعالمية ، وبدلا من أن يوجهوا نحو التقدم ، فانهم يؤسرون فى حدود التعليم المخلق الذى يبعدهم تماما عن مواجهة الحقائق .

لقد تكلمت مع بعض المدرسين ، واطلعت على الكتب وبرامج الدراسة والموضوعات التى تطلب الوزارة منهم أن يطرقوها مع تلاميذهم . فدراسة التوراة اجبارية لست ساعات فى الأسبوع بالنسبة لتلاميذ السنة الثامنة ، أى الذين يتراوح سنهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة مقابل أربع ساعات للرياضيات وأربع ساعات للغة العبرية . ويلتزم مدرسوهم بتقديم عرض أسبوعى يستغرق

ساعة كاملة حول الموضوعات التالية : « الحركة الصهيونية منذ سبعين عاما » ، الروح اليهودية وحرب الأيام الستة والنصر ، تاريخ القدس ، المدينة اليهودية منذ ثلاثة آلاف سنة •

وقد قالت لى احدى المربيات بتل أبيب نحن مكلفون بالتحدث عن حرب الأيام الستة فى حصص اللغة العبرية : كما « ينصحوننا » بتأكيد مسؤولية البلاد العربية الكاملة عما حدث ، وتأكيد عدالة قضيتنا • أما دروس التاريخ ، فتظهر أن سيرتنا فى نصاعة الثلج • وهناك فصول كاملة عن « الفظائع » التى ارتكبها العرب ، أما مذبحه دير يس فلا يرد ذكرها شأنها شأن كل أعمال الاغتصاب والجور الاسرائيلية •

ودير يس ، اذا لم تكن قد خانتنا الذاكرة ، هى القرية العربية الكائنة غرب القدس والتى هاجمتها قوات الايرجون (١) اليهودية فى السادس من أبريل عام ١٩٤٨ ، حيث ابادت ٢٥٠ من الرجال والنساء والأطفال • وكان لهذا الحدث دوى هائل حتى أن جون كيميش الكاتب والصحفى الاسرائيلى قال عنه انه « أكبر وصمة فى التاريخ اليهودى » •



ومن جهة أخرى ، يتعلم التلميذ الاسرائيلى أن « الانصهار » هو أكبر خطر يتهدد الجاليات اليهودية فى أى مكان فى العالم • ويصورون له كل الذين « تنكروا لدينهم ، وتقبلوا ديانة لوثر أو الكاثوليك » ومنهم المثقفون بالأخص ، على أنهم خونة • ولا تقل أحكامهم عن ذلك فى قسوتها بالنسبة لليهود الذين انضموا فى

منظمة ارامية معادية للعرب كان يتولى زعامتها مناحم بييجن الوزير فى حكومة اسرائيل •

الماضي للحركات الأرشيديية الكبيرة وساروا على نهج فولتير والموسوعيين (الانسيكلوبيدين) • وباختصار فانهم ينظرون بعين الشك والريبة لكل ما من شأنه المساهمة فى اخراج اليهود فى أى مكان من عزلتهم •

واذا كانت الوطنية أمر يدعو الى التقدير والاحترام ، فان هذا الانطواء المطلق والمتفانى فى ذاته يشكل خطرا • وانى لأستطيع أن أقدر تماما ثورة تلك الأم التى تسمع ابنها وهو يقول بكل جدية اثر عودته من روضة الاطفال : « سآكل طعامى بالكامل حتى أصبح جنديا طيبا وأحارب العرب » وبالتقصى فى الامر اتضح أن المربية هى التى لقنت الاطفال هذه المفاهيم المثيرة • ولكن يجب أن أقول أيضا أن نفس هذا الطفل المنتمى الى أسرة تكره العقليية العسكرية عاد فى يوم آخر ليقول وهو فى حيرة شديدة : « المدرسة تقول لنا اننا يجب أن نحب موسى ديان ، ولكن بابا لا يحبه ••• »

واذا كانت الدراسة العادية تتضمن برامجها عدة ساعات لتلقين النصوص الدينية ، فهناك الى جانب ذلك مدارس دينية بحثة تمويلها الدولة لأن هناك « علاقة خاصة بين الدين والدولة فى اسرائيل » على حد تعبير أحد المطبوعات الرسمية • ويقول نفس المطبوع : « والواقع أنه لا يوجد أحد لايعتبر أن التربية ليست مسألة مبدئية ضرورية لتقرير الطابع الروحاني للأجيال القادمة • وفى هذا المجال فان الدين يعتبر عاملا أساسيا • وكان على الدولة أن تلبي الاحتياجات الدينية والدنيوية للمجتمع ••• » ومنذ عام ١٩٥٧ تقرر تدريس « الوعى اليهودى » فى كل مدرسة تتبع الدولة •

وهكذا يتضح تماما طابع التعليم حتى غدا الخلط بين الدين والدولة مسألة مبدأ ، مما يدمغ المواطن الاسرائيلى بالطابع اللاهوتى الضيق الأفق ، الأمر الذى يثير حتما دواعى القلق •

٤- مَبْرُورٌ فِي أَرْضِهِم

* * *

لا تقتصر مشكلة اسرائيل في علاقاتها بالعالم العربي على النطاق الخارجى فقط ، لأن المشكلة قائمة داخل حدودها أيضا .
فبالرغم من اتساع عملية الهجرة ، فان هناك حوالى ثلاثمائة ألف عربى يعيشون تحت الحكم الاسرائيلى ، ويشكلون أكثر من ١٠٪ من مجموع السكان . وقد كثر الكلام ، وتردد مرارا عن مأساة اللاجئين . وهذا صحيح ، ولكن الكلام لن يكون كافيا ما لم يرفع عنهم الظلم الأساسى الواقع عليهم . ومن الواضح تماما أنه لن يتأتى الحل الدائم للنزاع ما لم تسو قضيتهم .

على أن المعلومات المتوفرة قليلة عن هؤلاء الفلسطينيين المنتمين أصلا الى هذه البلاد منذ آلاف السنوات ، والذين لم تطاوعهم نفوسهم على ترك الأرض التى نشثوا فيها . انهم هنا ، لا يزالون فى أماكنهم ، ولا يمكن اجتثاث جذورهم حتى اذا لم يعودوا يملكون الأرضى التى زرعها من قبل أجدادهم أجداد أجدادهم .

وقد قابلت الكثيرين من هؤلاء العرب فى اسرائيل . وسأتكلم فيما بعد عن الرجال والنساء الذين يعيشون فى الأرضى المحتلة . أما الآن فأريد أن أعرض لما رأيت داخل اسرائيل نفسها .



ها هو ذا طاهر ، المقيم فى يافا ، بالحى العربى بمدينة تل أبيب . انه قابيع على أرض مسكنه العارى تماما . وهو عبارة عن غرفة واحدة تكملها سقيفة بها موقد غاز . والغرفة خالية من الأثاث اللهم الا الأسرة وحشية كبيرة وحشيتان صغيرتان ومهد

يتراجع . ولا يوجد في الغرفة دولا ب أو منضدة بل مجرد حقيبة منزوية في ركن وبعض السلال الموثقة .
وقد جاء أحد أبنائه بمقعد شواطيء من عند الجيران . أما الصديق الذي رافقني فقد جلس القرفصاء على الأرض على نحو ما فعل مضيفنا .

وقامت الزوجة تعد لنا القهوة تحت السقيفة . فمقتضيات الضيافة شيء مقدس مهما تفاقمت درجة الفقر . والزوجة شابة، كان من الممكن أن تكون جميلة لولا الإرهاق الشديد الذي تعانيه كانت تحمل طفلا بين ساعديها وتنتظر آخر في طريقه الى الحياة . وراح يراقبنا خلف ظهر الأب المطمئن ثلاثة أطفال في غاية الجمال والهدوء . كان أكبرهم لا يتعدى السابعة من عمره .

وعلى جدران الغرفة ألصقت صور منزوعة من مجلات مصورة وزهور من ورق وبجانبها صورة فوتغرافية كبيرة فاخرة على ورق مصقول تبدو غريبة على المكان . كانت الصورة لطفلة في الثالثة أو الرابعة ، رائعة الجمال ومتزينة بالحلى ، جديرة بأن تنشر في مجلة متخصصة في مبتكرات أزياء الأطفال .

وتكلم طاهر . كان يحكى لنا قصة حياته ونحن نرتشف القهوة المرة اللذيذة المزوجة بحبوب لها طعم غريب . لقد استولوا على الأرض في عام ١٩٤٨ وحل الفقر بالقرية ولكنه تزوج بالرغم من ذلك وانتقل الى حيفا سعيا وراء العمل . وقد اشتغل كعامل في البناء . كان الأجر زهيدا ، ولكنه أجر على أى حال ، وسارت الأمور الى حد ما لفترة من الزمن . كانت أعمال البناء مزدهرة في تل أبيب ، تمهيدا لاستقبال المهاجرين الوافدين من الجزائر . ولكن يهود الجزائر رحلوا الى فرنسا ، لا الى اسرائيل . وبصفة عامة فان الهجرة تتراجع . وقد اقتضى الأمر ايقاف

العمل في بعض مواقع الميناء . ويعتبر طاهر نفسه محظوظا اذا اشتغل عشرة أيام في الشهر . وهو قلق على المستقبل ، خاصة وانه ينتظر طفله السادس القادم في الطريق ..

ونظرت حولي . لم يكن هناك خمسة أطفال ، وأدرك هو السؤال الذي تبادر الى ذهني دون أن أتفوه به ، فأشار الى الصورة المعلقة على الحائط وراح يشرح لي . انها صورة أبنته ولكنها لا تعيش معهم . كانت رائعة الجمال بشكل مدهش منذ مولدها حتى أن سيدة يهودية من أسرة ثرية وقعت في حبها للوهلة الأولى . كانت السيدة عاقرا فعرضت عليهم أن تتبناها . لم يقبلوا في بادئ الأمر ، ولكنهم فكروا في فقرهم المدقع وفي استحالة افلاتهم من الأوضاع التي يعيشون فيها . فلتنعم اذن بالسعادة هذه الطفلة الصغيرة على الأقل . واستقر رأيهم على قبول العرض .
— كانوا يخضرونها لنا بشكل منتظم في البداية . ولكنهم كفوا عن ذلك منذ سنة . انها لم تعد تتكلم العربية .. أنا أعرف بالطبع أنه ما كان يجب أن نتصرف على هذا النحو .. ولكن الأوضاع كانت قاسية ..

وكانت الطفلة الصغيرة المعلقة على الجدار الأبيض تبتسم في الفراغ . ونظرت الأم الى الصورة التي تبهرها وتعذبها . كانت دموعها المنسابة في صمت أول دموع شهدتها في هذا البلد ، ولكنها لن تكون الأخيرة .



مرة أخرى في مدينة يافا . في هذه المرة توجد خمسة أسرة من المعدن في غرفة عائرية . وتتوسط الغرفة منضدة . وهذا كل ما هناك . ولا تتوفر المياه للرجال الخمسة المقيمين في هذه الغرفة أو أى امكانيات لطهو الطعام .. لقد نزحوا هم أيضا من القرية بعد

تجريدتهم من أراضيهم . وكانوا عاطلين . وهم لا يجدون عملا
ثلاثة أرباع الوقت شأنهم شأن طاهر ويأكلون في أى مكان وأى
شئ يستطيعون الحصول عليه . وإذا تقاضوا أجرا ، فانهم
يرسلونه بالكامل تقريبا الى ذويهم الذين يفتقدون كل شئ .
ويعتبر ايجار مسكنهم المتهالك عبثا على كاهلهم بالرغم من توزيع
قيمتهم عليهم .

— لماذا لا تعودون الى قراكم لتكونوا بين ذويكم ؟ سنكون
الأحوال أيسر .

— قرانا ؟ وماذا نفعل فى قرانا دون أرض نفلحها ؟

وقد انضموا منذ سنتين الى النقابة . ففي عام ١٩٦٥، قرر
« الهستدروت » وهو الاتحاد العام الوحيد للنقابات فى اسرائيل،
وصاحب النفوذ الكبير ، ان يغير اسمه من « الاتحاد العام للعاملين
اليهود » الى « الاتحاد العام للعاملين فى اسرائيل » .
: وكان هذا التغيير مكسبا عماليا ، ولكنه ظل مجرد اجراء
شكلى .

فهناك منشآت كثيرة لا تقبل تشغيل العرب بأى حال من
الأحوال ، فضلا عن أن العمال العرب لا تواتيهم أبدا فرصة
الحصول على التدريب المهني الذى يؤهلهم لأداء الأعمال الفنية
حقا . ومن جهة أخرى ، فانهم مستبعدون بشكل حاسم من كل
ما يمس الدفاع الوطنى من قريب أو بعيد ، فلا يبقى أمامهم
الشيء الكثير فى دولة يغلب عليها الطابع العسكرى .

— والخارج ؟ ألم تفكروا فى الذهاب الى مكان آخر ، فى البلاد
التي تحتاج الى أيد عاملة وتستطيع أن تستقبلكم ؟ . .

فنظروا الى واومثوا برعوسهم : اى مكان آخر ؟ انهم
لا يريدون أن يعيشوا الا فى بلدهم ، فلسطين .
— لاننا على الاقل هنا لسنا بعيدى عن الأرض . .



أما فى تمرة ، فقد دار حديثى مع النساء .
وتمرة قرية معزولة من قرى الجليل فى شمال شرق حيفا .
ويعتبر الجليل أكبر مركز لتجمع السكان العرب ، ويفوق فى ذلك
مناطق تل أبيب والقدس والنقب . وتقع هذه القرية الكثيرة
المنخفضات والمرتفعات على نهاية طريق لا يودى الى أى مكان
آخر سوى المنازل المبعثرة على سفوح التلال . وتوجد حياتان
داخل تمرة ، تختلفان عن بعضهما البعض حتى أنهما لا تتسقان
معا . فهناك من ناحية قرية الفلاحين المنتمين أصلا لتمرة من أب
لجد منذ قرون عديدة ، ومن ناحية أخرى قرية اللاجئين من
القرى المجاورة الذين انتزعت منهم أراضيهم بلا مقابل باسم
« خطة التجهيز » . فأقاموا هنا على مسافة كيلو مترات قليلة من
مساكنهم القديمة .

كنت قد وصلت الى القاهرة حيث أمضيت الليل وكانت
تصحبني صديقتان أحدهما عربية والأخرى يهودية . كانت سارة
اليهودية قد جاءت من ليتوانيا منذ حوالى ثلاثين عاما وراحت
تقص على أسطورة بحيرة الطبرية التى كنا قد عزمنا على زيارتها
فى اليوم التالى .

— انهم يسمونها هنا بحر « كيزيت » ، ومعناها بالعبرية
« القيثارة » لأن البحيرة تتخذ فعلا شكل القيثارة . وهى تحت
مستوى البحر شأنها شأن البحر الميت . وتقول الأسطورة العبرية

انه بعد هلاك سدوم وعمورية زاد الملح في البحر الميت ، فتوسلت الاسماك « ليهو » حتى لا تحل نهاية العالم . وقد استجاب « يهو » وحد من ملوحة بحيرة طبرية ونقل الاسماك اليها . . وهكذا تنتقل الاسماك بسهولة أكبر من البشر خصوصا في الاساطير . .

كنا نتكلم بالانجليزية ، نحن الثلاث ، وقالت سارة في ملاحظة عابرة وقد قطبت جبينها «أنها من مخلفات عهد ابوصاية» كنا قد رحلنا في ساعة مبكرة من النهار ، لانه كان يتعين علينا ان نسرع حتى نصل الى الناصرة قبل حلول الليل . وساقول لكم بعد قليل سبب هذا التعجل .

لا توجد كهرباء في قرية تمرة ، وهي تشارك في وضعها هذا قرى عربية كثيرة وتعيش في حالة من الفقر أقرب الى البؤس . على أن ذكرى هذه القرية راسخة في ذهني من خلال وجهين : وجه امرأة ووجه فتاة ، كلاهما منقوش نقشا دقيقا على خلفية من الشقاء والكد . كانتا مليحتين ، وجمالهما من النوع الفلسطيني المتميز بلطف الأسارير وحزمها ونبل القوام . على أني لاحظ أني كتبت عنهما في مذكراتي : « الشابات الحزينات » .

كانت أكبرهما في العشرين من عمرها ، وهي لاجئة من قرية مجاورة . وأنقل لكم هنا حرفيا ما جاء على لسانها في حديثها معي :

— كنت في الثامنة من عمري عندما اضطررنا الى الرحيل . وأنا أذكر كل شيء . المكان الذي كنت ألعب فيه والمكان الذي كنت أجمع منه الزهور والخضروات . كانت قريتي تسمى « دامون » وهي تبعد عن مكاننا هذا نصف ساعة سيرا على الأقدام . كنت

أحلم دائما بالعودة اليها ، ولكن العودة محظورة ، وفي يوم من الأيام لم أقو على الانتظار . ففي ١٥ مايو ، يوم الاستقلال يرفع الحظر على التنقل في جميع أنحاء إسرائيل . ولذا قلت لصديقتي : « لنذهب هناك ولو مرة واحدة ، فلن يقولوا لنا شيئا . . » .

« سرنا في طريقنا ، ونحن نفنى ، وحملنا معنا مئوتتنا لتتناول وجبة الغداء هناك . كنت أذكر أنه يوجد ما يشبه البشر بجوار منزلنا وأنا كنا نتناول عادة طعامنا هناك مع أهلنا . كنت في غاية المرح ، ولكنني استرسلت في البكاء عندما شاهدت المكان وكل الموجودين هناك الآن . كانت صديقتي حزينة أيضا . وجلسنا لتأكل ولكن لم يكن لاي شيء طعم .

« ثم جاء شرطى وسألنا عن سبب تواجدها في هذا المكان فقلت له « كان المنزل منزلي فيما مضى وكنت ألعب هنا ، وهو مكان مقدس بالنسبة لي » فصرخ في وجهي ، ارحلي من هنا ، هذا المكان محرم عليك » . قلت له اننا في يوم الاستقلال ولكنه سخر مني وطردها دون أن يسمح لنا بمواصلة الأكل . كنا نريد أن نشاهد المكان وأن نستعيد الذكريات . وعدنا الى تمرّة وبكيننا طوال الطريق .

ماذا أقول لها : ان منزلها جزء من الأراضي التي استولت عليها إسرائيل . وقد سمعت العديد من القصص المشابهة بتفصيل لا تكاد تختلف ، وتكررت أمامي في مختلف المناطق العربية التي زرتها ، بما يؤكد مدى الاستغلال الفاضح للحقوق التي منحتها الأمم المتحدة لإسرائيل . فعندما تتواجد جاليتان على أرض واحدة لا يمكن أن تستقر الأوضاع ما دامت أحدهما تفرض نفسها بالقوة على الأخرى . ومن الجنون أن تؤمن بذلك ومن الجنون أيضا أن تبنى سياسة وطريقة حياة على هذا الأساس .

وأنا أقول وكرر مرة أخرى أن الدول العربية ليست معصومة من الأخطاء ، فقد ارتكب قادة هذه الدول أخطاء فاحشة في عام ١٩٤٨ وأغلب هؤلاء القادة لم يعد لهم وجود . ولكن هذه الأخطاء لا تبرر سياسة السلب والنهب التي تنتهجها الدولة العبرية بكل وقاحة ازاء عرب فلسطين .

أما الوجه الآخر فكان لفتاة في السادسة عشرة من عمرها . وقضيتها مختصرة وقائمة . فهي إحدى أفراد عائلة مكونة من ثمانية أبناء . كان الأب مريضا لا يكاد يقوى على العمل . وراحت الأم تكذب . والمدارس تحتاج لنقود ، والكتب والكراريس لها ثمن . وكانت الفتاة ، وهي أكبر اخوتها ، ذكية ، موهوبة ومتحمسة لدراسة اللغة الانجليزية والعلوم وكانت تريد أن تواصل تعليمها لتصبح طبيبة . كان أبوها موافق ، ولكن من يتكفل بمصاريف الدراسة ؟ كان لابد أن تكسب بعض القروش بأسرع ما يمكن لتربية أشقائها وشقيقاتها الأصغر منها . ولذا فهي تقوم ببعض أعمال الحياكة والتفصيل . ولكنها تكره هذا العمل ، وتمضي السنوات فتنسى ما تعلمته شيئا فشيئا بالرغم من الجهد التي تبذلها . وهي لا تجد أي مخرج من هذا الوضع ، ولذا فهي تعاني في الواقع ياسا صامتا .

ألم تحصى على منحة بوصفك أفضل طالبة في فصلك ؟

ولكنها ابتسمت في مرارة دون أن تجيب على سؤالى .

وقالت لى سارة بصوت ينضح بالغضب : « كان يمكنها أن

تحصل على منحة لو لم تكن عربية فقيرة من قرية تمر » .

يمكننى أن اصطحبكم معى في هذا المعرض الملىء بالصور

الشخصية ، فقد شاهدت بنفسى العشرات منها وكلها من نفس الطراز . وتبقى الاضواء هى ذاتها حتى اذا اختلف المنظر . لا شك أن كل عرب اسرئيل لا يعيشون جميعا فى نفس المستوى . ففى مثل هذه الظروف توجد دائما فئة تنتمى عادة الى الطبقات المحظوظة ترى أن مسابقة الحكم القائم من مصلحتها . ولا شك أن هذه الفئة تحصل على مكاسب مادية أكيدة كمكافأة لها على خضوعها للسافر أو الضمى . وأذكر بهذا الصدد أحد هؤلاء الأفراد ، وهو نائب فى البرلمان وممثل لأحد الأحزاب الحكومية . وقد قابلته فى الكنيسة ، فراح يشرح لى :

— العلاقات العربية اليهودية فى اسرئيل أشبه بالعلاقات القائمة فى الحياة الزوجية . فلا بد أن يتولى زمام الامر أحد الطرفين . . ومن الطبيعى فى اسرئيل أن يضطلع اليهود بهذه المهمة .

وقد عجبت لهذا المفهوم « العائلى » للدولة . على أن المثقفين العرب يتمثلون أمامى فى شخص ذلك الطبيب الشاب المقيم فى حيفا ، والذى لا يواجه أى مشكلة مالية على عكس غالبية أخوته فى الوطن . كان هذا الطبيب لا يطبق العنصرية التى يعانى منها .

وقد حكى لى تجربته الشخصية طوال سهرة بأكملها . فقد أدت التفرقة الى تعطيل دخوله الجامعة التى لا تقبل الا عددا محدودا من العرب كل سنة . وكان يعانى من العزلة لا من جانب مدرسيه (وهو سعيد بالاعتراف بذلك) ولكن من جانب الطلبة . وقد واجه مصاعب كبيرة فى الحصول على مسكن لا يبعد عن الجامعة . ولم يحدث أبدا أن دعاه أحد زملائه اليهود لزيارته فى بيته ، وكان محكوما عليه بالانطواء المخيف على نفسه . وعندما حصل على المؤهل بدأت عمليات الازلال الصغيرة داخل المستشفى .

وهو يضغط على نفسه حتى لا يثور عندما يتذكر أسوأ أهانة أصابته في صميم كرامته كإنسان وطبيب .

انتشر وباء في المستشفى الذي يعمل به وكان لابد من اجلاء المرضى حالا على طائرات هليكوبتر . وكانت حالتهم تستدعي وجود طبيب مرافق لهم . وقد عينه رئيس الأطباء لهذه المهمة فاستعد لركوب الهليكوبتر . ولكن الطيار اعترض اذ أنه غير مصرح لعربي بأن يستقل طائرة عسكرية . وأضاف الطيار « من يدرى ، ربما أعطاهم أى حقنة تودى بحياتهم » . ولما كان لا يتوافر أى طبيب آخر ، فقد رحل المرضى وحدهم . واحتفظ الدكتور برباطة جأشه ولكنه تخلى نهائيا عن كل أوهامه كمفكر ليبرالى متسامح .

وتذكرت وأنا أستمع اليه الحديث الذى أدلى به الرئيس الجديد لاتحاد طلبة القدس . كان الحديث فى اجتماع عام . وقد وجه له سؤال حول المشكلة التى يواجهها الطلبة العرب فى الإقامة بالمدينة اليهودية حيث تقع الجامعة ، وما هى الاجراءات التى سيتخذها لعلاج هذا الوضع . فأجاب :

- لا توجد أى مشاكل . فقد تم غزونا للقدس بأسرها ، وما عليهم الا أن يسكنوا فى الأحياء العربية مع أقرانهم .



هناك استيلاء على الأراضى وحالة من الفقر الشديد فى القرى العربية التى تفتقر الى المدرس والمرافق الصحية والخدمات الطبية والكهرباء . وهناك مشكلة العمل والحرف والنقص الفظيع فى المعدات الثقافية والفقر العام الذى يبلغ حد البؤس فى اغلب الأحيان والتفرقة فى الدراسة والعمل . ولكن

هناك ضرب آخر من التفرقة يعانى منه عرب اسرائيل . كتبت من قبل ، بصدد زيارتي لقرية تمرة ، انى كنت مضطرة الى العودة الى الناصرة فى نفس الليلة . لم تكن المشكلة تعينى أنا أو سارة . ولكن صديقتنا العربية التى نقيم فى الناصرة والخاضعة للقانون العسكرى ، ما كان يوسعها أن تفضى الليلة خارج بلدها .

والقانون العسكرى من أقسى العقوبات التى تعترض حرية المواطن العربى فى اسرائيل وحقه فى ممارسة الحياة اليومية . وبصفة عامة تقسم المناطق المتاخمة للحدود والمناطق التى تعيش فيها نسبة كبيرة من العرب ، الى قطاعات تخضع للسيادة العسكرية التى تتمتع بحقوق دكتاتورية من الناحية العملية . ويتعين على المواطن العربى أن يستخرج تصريحاً من السلطة العسكرية اذا اراد أن ينتقل من حيفا الى الناصرة أو من الناصرة الى طبرية . ويجب أن يقدم طلب التصريح كتابة وقبل مواعده بيومين مع تحديد الأماكن التى يريد أن يتوجه اليها مقدم الطلب والطريق الذى سيسلكه والأماكن التى سيتوقف فيها . ولا بد بالطبع من تقديم شرح مفصل لأسباب الانتقال . ويتعرض من ينتقل دون الحصول على هذا التصريح للقبض عليه والسجن . ولا يمكن الاعتراض على رفض منح التصريح الا فى حالات نادرة . ولا يسرى التصريح الا لعدد من الأيام كما لا يسمح أبداً بالمبيت خارج المنزل . ويخضع لهذا النظام أيضاً عدد من العمال المناضلين ، ولكن التفرقة لها دورها هنا أيضاً .

وعندما كنت فى الجليل تعرض المرافقون لى لللباسات شاذة يسبب هذه المضايقات السخيفة . كان لابد من حساب دقيق حتى تتمشى التصريحات مع بعضها . واستدعى الانتقال من طبرية الى كفر ناحوم من أجل غرض سياحى بحث اعداداً خاصاً .

ويجب أن أعترف بأنى أعجبت بهدوئهم الشديد بينما كنت أغلى من الغضب . ومن بين الحجج التى ترددها الدعاية الاسرائيلية أن العرب يعيشون على أى حال فى اسرائيل فى ظروف أفضل من ظروفهم فى البلاد المجاورة . ويبدو أولا أن هذا التأكيد مبالغ فيه ذلك لأن المناطق المحتلة تعيش فى أوضاع أقرب الى القسرون الوسطى وبالإضافة الى ذلك فلن هذا التأكيد يعالج باستخفاف القبضة الخائفة التى يفرضها الجيش المستخدم كجهاز بوليس يتمتع بامتيازات خاصة .

قالت لى سارة :

- لقد جئت الى فلسطين لكى أفلت من الاذلال وأنا سعيدة اليوم لكونى مواطنة اسرائيلية ولكنى لا أقبل اذلال الآخرين خصوصا إذا تم ذلك باسمى ودموى الحفاظ على أمنى .. هذا ظلم . ولن يكون مفيدا لأى شخص ..

لقد أصبت يا سارة ولكن ما أقل عدد الدين يفكرون على هذا النحو من بين أقرانك .

٥- في المناطق المحتلة

قطاع غزة وسيناء والقدس والضفة الغربية للأردن
ومرتفعات جولان : هكذا أصبحت اسرائيل اليوم دولة تحتل
أراضي تزيد عن مساحتها . ولقد تحولت قوات الهجوم ضد مصر
وسوريا والأردن في يونيو الماضي الى قوات احتلال بعد وقف
اطلاق النار . ومن المعروف أن مجلس الأمن اتخذ بالاجماع في
٢٢ نوفمبر ١٩٦٧ قرارا يطالبها بالعودة الى حدودها ، واجلاء
كل قواتها عن الأراضي المحتلة . ومن المعروف أيضا أن حكومة
اسرائيل لا تعمل حسابا لهذا القرار ، بل أعلنت رسميا أن القدس
ستظل اسرائيلية على أى حال من الأحوال .

ألا يبدو هذا التحدى للأمم المتحدة عجيبا من جانب دولة
يرجع الفضل في وجودها الى هذه المنظمة الدولية ؟
ليس من مصلحة اسرائيل أكثر من أى دولة أخرى أن تؤكد
ضرورة احترام قرارات الأمم المتحدة ؟ وماذا تنتظر اسرائيل من
هذا الاحتلال ؟

لقد زرت المناطق المحتلة في ديسمبر ، ولا شك أن الأوضاع
زادت سوءا على ما كانت عليه في ذلك الوقت حسب ما اتفقت
عليه وكالات الأنباء المختلفة . كانت هذه الأوضاع تعاني أصلا من
كل ما يفرزه الاحتلال والمطاردات البوليسية وأعمال القمع العمياء
من سموم .

وكان في امكاني أن أتصور الطريق الذي سيسلكه القادة
الاسرائيليون ، والمشروعات الجارية تنفيذها الآن بعد اعدادها

بكل عناية ، والتي أصبحت واضحة تماما حتى أن عددا متزايدا من المراسلين الأجانب، يعلقون عليها ، وكان لها صدق في عدد من الصحف الانجليزية مثل « الأوبزرفر » و « الجارديان » و « الصنداى تايمز » .

قطاع غزة شريط يمتد بطول الشاطئ الرملى السهل . وعلى الحدود توجد نقطة حراسة عسكرية تقطع الطريق ، والمرور من غزة سهل اذا كان المرء قادما من اسرائيل ، أو هكذا كان الحال وقت زيارتي ، كانت الاجراءات تقتصر على مجرد التأكد من أوراق تحقيق الشخصية . أما في العودة ، فالتفتيش أدق اذ يفحص الجنود الاوراق بكل عناية ودقة ويفتشون السيارات . والهدف من ذلك هو مكافحة السوق السوداء ، ذلك أن اليهود المجاورين للقطاع يحصلون منه على لوازمهم لرخص أسعاره . بل أن الناس يفدون الى القطاع من مدينة أشدود الجديدة التي أقيمت عام ١٩٥٥ ومن المنتظر أن تصبح الميناء الثانى لاسرائيل بعد حيفا . على أن تجارة المواد الغذائية سرعان ما تعدت حدود الاستهلاك العائلى المعقول الى حد استدعى تدخل الجيش . ولذا يتم تفتيش السيارات حتى تحولت نقطة المراقبة الى جمرك يحمل رجاله المدافع الرشاشة .

وعلى اليمين يمتد شاطئ البحر عن قرب خلف كثبان الرمال . وعلى اليسار توجد ككنات مهجورة ، نصف خربة ، كانت المقر السابق لجنود الطوارىء التابعين للأمم المتحدة ، « ذوى الخوذات الزرقاء » . وكان هناك عدد من النساء القادמות من معسكر اللاجئين يجتمعن حول حنفية مياه ، وقد حملن على رؤوسهن صفائح « الجركن » المملوءة بالماء ، كما كان النساء يحملن فى الماضى البلايىص . ويوجد فى قطاع غزة أكبر عدد من اللاجئين بعد الأردن . ويقول تقرير لوكالة الغوث التابعة للأمم

المتحدة ، صدر في يونيو ١٩٦٥ أن عددهم بلغ ٢٩٦٩٤٨ . ولا تعترف اسرائيل بهذا الرقم وتعتبره مبالغاً فيه ، كما تعترض أيضاً على العدد الاجمالي للاجئين الذي يقدره نفس المصدر السابق (١) . وأسباب هذا الجدل واضحة ، فهو يرمى من جهة الى التهوين من شأن مأساة اللاجئين ، كى يهدف من جهة أخرى الى تدبر أمور المستقبل والاحتماء بموقع أفضل اذا ما أجبرت حكومة اسرائيل على تنفيذ قرار الامم المتحدة الصادر في مايو ١٩٤٨ والذي يخير اللاجئين بين العودة الى ديارهم أو الحصول على تعويض .

والى أن يتم ذلك ، يعيش اللاجئون منذ حوالى عشرين عاماً فى معسكرات تسعة ويتلقون معونة لا تكاد تسد الرمق . وقد زادت حالتهم سوءاً منذ حرب يونيو . فقد تركوا أراضيهم أمام اسرائيل فاذا بها تطاردهم مرة أخرى . ويتعرض اللاجئون لكل ضروب التعسف والاذلال ولا ينعمون بالامان أو الاستقرار فى معسكراتهم البائسة المكونة من أكواخ من الصفيح .

ويكفى فى هذا الصدد أن أورد مثلاً واحداً يفصح عن التصرفات التى تتم هنا بانتظام ، ففي ١٠ يناير الماضى ، أتى الجيش على معسكر مقام على مسافة عشرة كيلو مترات من مدينة غزة كما دمر أيضاً مخيماً مجاوراً تعيش فيه جماعة من البدو .

أما المبرر فهو القاء ثمانى قنابل يدوية فى هذه المنطقة قبل ذلك بأسبوعين . وقبل أن تهدم قوات الجيش هذا المعسكر ، حاصره بالدبابات والسيارات نصف المجنزرة كما فرضت حظر

(١) لا يشمل هذا العدد سوى اللاجئين الذين يتسلمون معونة من وكالة للتوث . ويقدر نفس المصدر عدد الفلسطينيين الذين خرجوا من ديارهم بمليون و ٧٥٠ ألف نسمة .

التجول . وتم استجواب ألفين وخمسمائة رجل تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخمسين لمدة ساعات ، ظلوا وقوا وأيديهم مرفوعة فوق رؤوسهم تحت تهديد المدافع الرشاشة . وقد ألقى القبض على أربعين من « المشتبه في أمرهم » وتم ترحيلهم إلى جهة غير معروفة .

وقد دار بينى وبين جندي اسرائيلي حديث طويل ، وهذا الجندي من أصل بلغاري وقد اشترك في عملية تدمير من هذا النوع . وكان قد طلب مقابلتى . واعتقد أنه أقدم على ذلك لى يبرىء ذمته ويتخلص من عبء هذه الذكريات المؤلمة .

وقد رفض أن يذهب الى الفندق الذى كنت أقيم فيه كما رفض أن يقابلنى فى مقهى خوفاً من « الأذان الطويلة » على حد تعبيره . ولذا فقد تجولنا فى شوارع تل أبيب لى نبدو كما برين غير مباليين ، يتجاذبان أطراف الحديث . ولكنه كان يكف عن الكلام فجأة كلما صادفنا أحد المارة . كانت الوحدة التى التحق بها قد احتلت منطقة غزة بالدات . قال لى :

— أعمال التفتيش فظيعة . كنا نقتحم المنازل فى وسط الليل . كان الجنون يصيب الناس ، وهم نصف عرايا ، وكانت النسوة تبكى والأطفال يرتعدون من الخوف . ويجبر كل رجل أو طفل يزد سنه عن الرابعة عشرة على الاستلقاء وبطنه نحو الأرض ، والأيدى معقودة خلف مؤخرة الرأس . ويدوسهم الجنود بالأحذية ويضربونهم بكعوب البنادق . أما الطرق على الأبواب فلا يتم الا بقرعها بكعوب البنادق .

» واذا لم يفتح الباب خلال ثلاثين ثانية ، يصدر الأمر بالاقتحام . وعلى أية حال فإن أعمال التفتيش مسألة روتينية

تتم كل ليلة • وقد لا يقع أحداث متميزة ولكن الأثر النفسى مؤكد حتى اذا لم يتم العثور على أى شىء •

» والتعليمات صارمة بالنسبة لدوريات الليل • يجب اطلاق النار بلا أى انذار سابق بمجرد ملاحظة أى شىء يشير الريبة • وتفض الأوامر بأن يكون اطلاق النار « فى المليون » •

» وقد توليت الحراسة أيضا فى المحاكم العسكرية • كانوا يحاكمون اولادا خرقوا تعليمات حظر التجول • كان من بينهم من يتراوح سنه بين الرابعة عشرة والثانية عشرة • وأذكر منهم واحدا انهالوا عليه بالضرب المبرح حتى أنه كان لا يقوى على السير • وهناك آخر ، رشقوا خصيته بالدبابيس • وعندما حكى ما حدث له للقضاة ، استرسلوا فى الضحك •

» كانوا يريدون أن نقوم بدور المرشدين • وأنا لحسن حظى لا أتكلم العربية • أما الآخرون الذين يعرفون اللغة العربية ، وتتفق ملامحهم مع ملامح العرب ، فكان الضباط يطالبونهم بارتداء الملابس المدنية والتسكع فى الشوارع لاستراق السمع • وكانوا ينصحونهم بالتفوه بكلمات استفزازية معادية لاسرائيل لتكشف لهم انفعالات المارة • أما الذين يرفضون هذا العمل فيتهمون بالتخلى عن وطنيتهم ، كما يواجهون العديد من المتاعب •

» وعندما وصلنا الى غزة ، قالوا لنا انه لا داعى لمحاولة اقامة علاقات طيبة مع الأهالى ، لأنهم يكرهوننا ، وأن المطلوب منا هو بث الخوف فى نفوسهم • وقالوا لنا : « انهم لن يحركوا ساكنا اذا أدركوا أننا لن نرحمهم » •

» وكل ما أرويه عليك صحيح ، لقد رأيته بعينى وشاركت فيه بنفسى ، وسأظل أخجل مما فعلت طوال حياتى •

هذه شهادة من جانب المحتلين ، واليكم شهادة من جانب الذين يعانون من الاحتلال .

يعيش م ٠٠ في رام الله بالقرب من القدس . والواقع أنه لما إليها مع عائلته منذ قيام الحرب . وهو قادم من قرية « عمواس » المجاورة لمدينة القدس . أما أسرته فتتكون من والده (وهو أستاذ سابق في جامعة عمان ، بلغ سن التقاعد) ومن زوجته وأبنائه وأشقائه وشقيقاته . وقد فقدوا كل شيء ، ولا يوجد أى أثاث في الغرفة التي استقبلوني فيها ، عدا عدد من الحشايا المفروشة على الأرض ، ومصباح كهربائي عادي يتدلى من السقف ، وتكلم م ٠٠٠ :

— « لم تكن نتوقع نشوب الحرب ، كنا نتصور أن الأمر لن يتعدى حدود الاثارة ، وأن كل شيء سيسوى بدون قتال . وقعت الحرب فوق رؤوسنا كالصاعقة ، وقد التجأنا في ليلة ٦ يونيو الى كنيسة البرج بالقرية ، وفي الفجر ، دخل القناصل الاسرائيلي في الكنيسة فرآنا ، وطلب منا مغادرتها فأنتهى كل شيء ، أردنا أن نعود الى منازلنا ، ولكنه رفض وأخبرنا أننا يجب أن نذهب الى رام الله حيث سيتم تجميعنا .

وطلبنا أن يصرح لنا بأن نأخذ ملابس لنا وبالأخص لأطفالنا ، ولكن الجنود رفضوا . كنت أحمل طفلي الكبيرين وسنهما خمس سنوات و ثلاث سنوات ، وكانت زوجتي تحمل وليدنا وعمره ثلاثة أشهر . وكانت تعاني قلقا شديدا لأن لبنها ليس طيبا ، ولا يستطيع الوليد أن يشربه . كان لا بد من استخدام زجاجة رضاعة ولكنه كان محظورا علينا حمل أى شيء معنا . وقد قلت ذلك للقائد ولكنه أجابني بأنه ليس مرضعا وأن الأمر لا يعنيه في شيء . وكنا حفاة وأنصاف عرايا .

« وسرنا في الطريق وانضم الينا سكان قريتين آخرين وهما

بيت نوبه ويالو ، تحت حراسة الجنود . كنا لا نملك شيئا ناكله
فاسترسل الأطفال فى البكاء .

« وعندئذ قسمونا الى فريقين ، ووضعونى مع ثلاثة وعشرين
شابا آخرين ، وقالوا لنا اننا أسرى حرب . وأشارت للقائد نحو
الأطفال وقلت اننى لا أستطيع أن أتركهم ، وانهم لا يمكنهم أن
يسيروا بمفردهم ، فضحك أحد الجنود وصاح : « ما عليك الا أن
تلقى بهم ، فتخلص منهم . » وقد عصبوا أعيننا واستمعنا الى
الآخرين وهم يرحلون ، وكان يقيننا أنهم سيطلقون النار علينا .

« وقد أخذوا منى دبلة الزواج وساعتى بل ومندبلى أيضا .
وكانت عيوننا لا تزال معصوبة وراحوا يطلقون النار لارهابنا .
ودارت بعد ذلك مناقشة بين الجنود . كانوا لا يعرفون كيف يتصرفون
فيما . وكان واحد منهم يتميز بالشراسة ، يصر على قتلنا . ولكن
الآخرين قالوا انه لا يمكن أن يتم الأمر على هذا النحو . وقد وضعونا
فى سيارة نقل دون أن يرفعوا العصابت عن عيوننا .

« وتوقفت بنا سيارة النقل عدة مرات قبل أن نصل الى الرملة
غرب . اسرائيل . وكانوا يجبروننا فى كل مرة على النزول
ويضربوننا ، وأسوأ ما حدث لنا كان فى مركز البوليس بالرملة
فقد راحوا يستجوبوننا وعيوننا معصوبة ويضربوننا حتى فقدان
الوعى . كانوا يطالبوننا بأرقامنا متظاهرين بأنهم واثقون بأننا جنود
فى الجيش الأردنى . وكلما كررت لهم أن ذلك غير صحيح ، تمادوا
فى ضربى . وقد طلب منهم فتى فى الثامنة عشرة أن يشرب ، وقد
خارت قواه وغطت الدماء وجهه . فاحضروا دورق ميهاء وراحوا
يسكبون الماء أمامه دون أن يسمحوا له بالشرب .

واستمر هذا الوضع يومين . لا أكل ولا شرب بل الضرب
المتواصل . وكانوا يحبسونا فى الليل داخل غرفة صغيرة يغمرون

أرضها تماما بالماء ويجبروننا على الاستلقاء على بطوننا والنوم ..
 » وأخيرا أمرونا بركوب سيارات النقل ، وساقونا الى أحد
 معسكرات الاعتقال بالقرب من حيفا . كان كل مائة وعشرين منا
 يعيشون في عنبر واحد بلا أى أثاث أو غطاء ، وبأقل قدر من ماء
 الشرب وبلا أى ترتيبات صحية ، وطعام لا يكاد يسد الرمق . كنت
 حافى القدمين . وقد أفرجوا عني بعد شهرين دون أى تفسير
 لتصرفهم .

» وذهبت الى رام الله لأنضم لأسرتى وتقدمنا بطلب تصريح
 للعودة الى قريتي عمواس ، فقالوا لنا أن ذلك محال لأنها قرية
 اراهيبين وقد تم تدميرها . قلنا لهم اننا على استعداد للمعيشة في
 خيمة حتى نعيد بناء مسكننا ولكنهم سخروا منا وقالوا لنا ان أرضنا
 لم تعد ملكا لنا ، وانه يتعين علينا الإقامة في الرملة أو الانتقال الى
 الأردن ، الى الضفة الشرقية ، اذا أردنا ذلك .

» وقد بقينا هنا ، ونحن نعيش في حالة من البؤس الشديد.
 ولكنهم لن يتمكنوا من ترحيلنا فنحن نعرف تماما أن هذه هي
 أميتهم .

» لم يعد لنا من أثاث منزلنا سوى سجاد . وقد تسرب به
 أخى الصغير سرا في إحدى الليالى بين الخرابات وكان يجازف بحياته
 ولكن هذا السجاد ليس في نظرنا مجرد شيء عادى . انه رمز
 العودة .

وقد اخترت حديث م .. من بين غيره من الأحاديث . وهناك
 روايات تفوق هذا الحديث في فظاعتها ولكنى اخترت روايته بالذات
 لأنها نموذجية اذ لا تحوى أى شيء غير عادى . فكل ما حدث لهم ..
 يبدو عاديا للغاية في اطار هذه الحرب .

ما أشد الاختلاف بين رام الله والقسديس وبيت لحم ونابلس وغزة . . على انى أجد فى كل هذه المدن نفس النظرات الصامتة ونفس الاحساس بالحياة الدفينة التى تخفى مشاعر متلاطمة تحت سطح هادى . هناك شىء متأجج ، لا يهدأ ، فى هذه المدن المحتلة . وأيا كانت الاختلافات بين تلك المدن فإن القاسم المشترك بينها جميعا هو ذلك الزى العسكرى الاجنبى المنتشر فى شوارعها .

ان ما يلتفت النظر فورا هو موقف « الرفض » من جانب الأهالى ولنضرب المثل بغزة . تعاني هذه المنطقة ، أزمة اقتصادية خطيرة ، شأنها شأن كل المناطق المحتلة . لقد استقرت فى العديد من المنازل حالة القلق اليومية من أجل مطالب الحياة المادية البسيطة . ولكن غزة لا تتعاون ككل المناطق الأخرى . فالناس يتحملون هنا روتين المسائل الادارية ويعيشون بقدر ما يستطيعون ولكنهم « يرفضون » الوجود الاسرائيلى . ويفرض هذا الوجود نفسه فى الوقت الراهن ، لأن الجيش الاسرائيلى أقوى منهم . وتقوم أجهزته الخاصة بأعمال التفتيش والقبض واصدار الأحكام والحبس وتحول الوشاية الى نظام معترف به وتنسف المنازل « المشتبه فى أمرها » بالديناميت ، وتحول كل جندى الى رجل شرطة ، وتلجأ الى « العقوبات » الجماعية ، أى انها تمارس باختصار كل مقتضيات الاحتلال ! وقد رأيتهم يستوقفون سيارة فى الطريق المؤدى الى نابلس ، وقد أخرجوا كل الركاب ، رجالا ونساء وأطفالا ، وأيديهم مرفوعة الى أعلى ، وفتحوا كل السلال والمقاطف وبدءوا عملية التفتيش الفظة . وتم كل ذلك تحت تهديد الرشاشات .

لقد تكلمت عن النظرات الشعبية فى المدن المحتلة . ولكن هناك أيضا نظرات المحتلين المتجرفة والباردة ، وهى نفس نظرات المحتلين التى شهدناها فى بلاد أخرى وفى أزمنة أخرى .

ولكن ما هو رد الفعل ؟ اليكم مثلاً : كنت في حاجة الى الانتقال الى ضاحية بالقرب من غزة ، لا يسهل الوصول اليها • وقد أبدى أحد سكان المدينة استعداده لمرافقتي كدليل • ولما كانت المسافة طويلة الى حد ما فقد عرضت عليه أن يستقل السيارة التي جئت بها من تل أبيب • ولكنه رفض • وركبنا سيارته بالرغم من انها عربية موهلة في القدم ، ربطت أبوابها بأسلاك ويتعطل محركها من آن لآخر • ولما سألته عن السبب أجابني قائلاً : « سيارتك تحبل أرقاما اسرائيلية • وأنا لا أريد أن يرانى الأهالي في مثل هذه السيارة ، لأنهم سيتصورون أنى من المتعاضدين مع المحتل • »

واليكم رد فعل آخر • وقع في بيت لحم بالضفة الغربية للأردن • كانت هناك حوالى عشر سيارات للشرطة وسيارات نصف مجنزدة ودباباة خفيفة في الميدان أمام كنيسة الميلاد • ولا تزال الرايات البيضاء ترفرف فوق أسطح بعض المنازل • وفي وسع أركان الحرب أن يكون راضيا عن الأوضاع فما زال سكان هذه المنازل خائفين تماما كما كانوا أيام الحرب • وفي ركن أحد الشوارع المتعرجة والصاعدة في درجات ، يوجد دكان صغير يبيع كل الأصناف وفي وسط مجموعات الصور وأثواب القماش وبكرات الخيط التي تذكر المرء بمحلات البقالة في الريف الفرنسي ، توجد شارات لامعة تبدو شاذة وسط ركام البضائع • وهى من النوع الذى يحاك على الجيوب أو أكمام القمصان • وإذا نظر المرء اليها عن قرب ، اتضح له انها تحمل شعارات وأسماء مدن الأردن المحتلة : القدس أريحا ، نابلس ، وفي وسطها شعار الدولة الأردنية وعلمها الوطنى ، حتى تتأكد فكرة انتهاء هذه المدن للدولة الأردنية • وقال لى البائع : « أنا لا أحب « حسين » ، ولكن المسألة مسألة مبدأ • »

وقد قبض على الرجل مرتين ، كما ضربوه وهددوه •

والاحتلال يعنى المقاومة • وقد اتخذت المقاومة اشكالا متعددة
ابتداً من التصرفات الفردية حتى الأعمال الجماهيرية • وقد نجح
المعلمون في القدس وفي الضفة الغربية في التمسك بالكتب الأردنية
في المدارس بدلا من الكتب الاسرائيلية التي أرادوا أن يفرضوها ،
وذلك بعد اضراب طويل • وتطبع الجرائد السرية وتوزع • ويقدم
الاسرائيليون أنفسهم الأدلة على مدى انتشار حركة المقاومة ونوعيتها
بتوسعهم في حركات القبض والاعتقال • وقوائم الشرطة الخاصة
بالمطلوب القبض عليهم تضم أسماء أطباء وطلبة وشخصيات معروفة
ومحترمة •

وتعلن البيانات الصاخبة ، بشكل منتظم ، انه قد تم
« استئصال » المقاومة أو « القضاء » عليها في القدس أو غزة أو
غيرهما •• لكن المقاومة مستمرة ، بل تمتد وتزداد احكاما • وقد
تحولت المقاومة الى مشكلة خطيرة تشغل اسرائيل بالرغم من جمعة
الجنرال ديان ، وزير الحرب ، الذي يحتاج الى اثاره الخوف في نفوس
مواطنيه والى أثبات أنه الرجل الوحيد القادر على ضمان أمنهم ، لكي
يحقق أهدافه السياسية •

وقد قابلت عددا من قادة المقاومة في غزة والأردن ، فرأيت
رجالا هادئين وعمليين ، يتميزون بوضوح الرؤية • وهم لا تخالجهم
أى أوهام حول التوسعات الاسرائيلية واقامة « كيبوتزات » عسكرية
في الضفة الغربية للأردن ، وسياسة الارهاب • والتدمير المستمرة
في غزة والضفة الغربية وعلى الحدود السورية • وتؤكد مخاوفهم
خطابات ديان ومناحم بيجن وأمثالهما حول ضرورة ضم هذه المناطق •
على أن كل من يتحمل مسؤولية هنا ، أكد لي أنه لا يضم أى عداة
ضد اليهود بوصفهم يهودا ، وأنه لا يأخذ على اسرائيل يهوديتها بل
صهيونيتها •

ويود هؤلاء الرجال بكل عمق أن تتم تسوية سلمية في الشرق الأوسط . ولكن انشراط الأساسى الذى يطالبون به هو الجلاء عن المناطق المحتلة والاعتراف بحقوق المواطنين الفلسطينيين العرب .

ولكن سير الأحداث يؤكد للأسف أن اسرائيل غير مستعدة للتخلي عن أحلامها التوسعية . وعلى كل فإن العرب حساسون بشدة لقيام الحكومة الاسرائيلية بحملة عالمية واسعة من أجل هجرة اليهود الى اسرائيل فى الوقت الذى تدفعهم نصرقات الجيش الى الهجرة . .

ويبدو أن قادة حكومة اسرائيل لا يريدون أن يكون السلوك العام لقوات الاحتلال محل فحص دقيق من جانب جهات لا يمكن التشكيك فى جديتها . وكانت الرابطة الدولية لرجال القانون الديمقراطيين ، ومركزها الرئيسى فى بروكسل ، قد قررت ارسال لجنة لزيارة المناطق المحتلة . وأفادهم السيد ميكل مور ، القديس العام لوكالة الفوث الدولية ، أنه يضع نفسه تحت تصرف اللجنة لتسهيل مهمتها . ولكن التأشيرات التى منحت لأعضاء اللجنة سحبت فى اللحظة الأخيرة لمبررواه ، وهو أن اذاعة صوت العرب أعلنت عن هذه الرحلة « بشكل معاد لاسرائيل » .

الا يرجع هذا التصرف بالآخرى ، الى أن حكومة اسرائيل ستجد مشقة فى تبرير موقفها من الأهالى المدنيين فى المناطق المحتلة ، أمام شخصيات قانونية مرموقة ؟ .

٦- الكيبوتز: هل هو أحد أشكال الاشتراكية؟

هناك كلمة سحرية محاطة بهالة من التبجيل فى نظر الكثيرين فى فرنسا وفى غيرها من البلاد فان كلمة « الكيبوتز » تذكر فوراً كلما تطرق الكلام الى اسرائيل .

بل أن البعض يرى أن هذه الكلمة تكفى وحدها لانهاء أية مناقشة . واذا جازف المرء وأدان امامهم سياسة الدولة الاسرائيلية، فانهم يردون عليك باجابة مفحمة وقاطعة : « قد يكون هذا صحيحاً ! ولكن هناك على أى حال الكيبوتزات ١٠٠ » .

وتفترض هذه الطريقة فى التفكير ، فكرتين مسبقتين :
أولهما أن الكيبوتزات نظام خاص تتميز به اسرائيل وحدها
وثانيتهما انها مؤسسة نموذجية . ومن المفيد أن نواجه هذه التأكيدات بواقع الأمور .

هناك أولاً بعض الأرقام التى تقدم مزيداً من الوضوح .
فالوثائق الحكومية الرسمية تؤكد أن الكيبوتزات تمثل ثمانين ألف شخص أى حوالى ٣٥٪ من مجموع السكان ، وهى تضم ١٧٪ من الأهالى الزراعيين اليهود والعرب ، أو ٣٠٪ من نفس هؤلاء السكان؛ اذا لم نأخذ فى اعتبارنا سوى اليهود .

ولا تضم الكيبوتزات أى مواطن عربى الى عضويتها . وعلى كل حال ، فمن الصعب أن نعتبر نظاماً لا يشمل سوى ٤٪ من من مواطنى أية دولة نظاماً حاسماً بالنسبة لها .

على انهم سيقولون لك أن الكيبوتز شيء آخر . انه النموذج

الاسرائيلي للاشتراكية ، ورمز ارادة التجديد وخلق الاصيل
ولا يمكننا أن نرد على ذلك الا بالتعمق عن قرب فى دور الكيبوتزات
ومركزها فى تاريخ دولة اسرائيل .

أنشئ أول كيبوتز فى عام ١٩٠٩ على ضفاف بحيرة طبرية .
وقد سمي هذا الكيبوتز « دجانيا » (زهرة العنبر) واعتبر
« الكيبوتز الأم » . وكان رجال هذا الكيبوتز من المستوطنين
العاملين فى مزرعة تتبع « الصندوق القومى اليهودى » الذين قرروا
أن يتولوا بأنفسهم استغلال هذه المزرعة فى نظام جماعى صارم .
من غير المسموح به استخدام النقود داخل الجماعة . وكلمة
« كيبوتز » تعنى « الجماعة » بالعبرية ، وهى المسئولة عن الانتاج
وعن كل الخدمات الجماعية وعن توفير كل احتياجات الأفراد .
وكانت الملكية الخاصة ممنوعة ، وكذلك أيضا العمل الأخير . وكان
لا يسمح بأى تجارة فردية ، فكل عمليات البيع والشراء تتم عن
طريق الجماعة ، وتستخدم كل الأرباح فى تطوير القرية .

من أين جاء مستوطنو « ديجانيا » ؟ من أوروبا الشرقية ،
وبالأخص من روسيا القيصرية التى كانوا يعانون فيها من أعمال
الاضطهاد والسياسة الرجعية والوحشية للحكومة الامبراطورية .
وبالرغم من ميل هؤلاء المستوطنين الى الأفكار المشايعة للاشتراكية
الا أنهم انجذبوا للصهيونية ومطالبها القوية المتصوفة .

وقد وقع خلفاؤهم والمواصلون لرسالتهم الذين استوحوا هذه
الحركة وطوروها ، فى نفس التناقض . فالصهيونية تنادى باقامة
دولة تمتد الى الحدود التى وردت فى التوراة ، ولذا كان لابد أن
تكون الصهيونية توسعية . والتوسع يعنى فورا استخدام القوة

العسكرية . وفى هذا المجال بالذات ، قامت الكيبوتزات بدور
أوسع من دورها الاجتماعى أو الاقتصادى .

فمن المعروف أن « الصندوق القومى اليهودى » كان يبيع
سياسة الشراء المنتظم للأراضى فى فلسطين . وكانت هذه الأراضى
لا تشتري من الذين يعملون فيها ويعيشون عليها منذ قرون عديدة ،
ولكن من كبار الملاك العقاريين الذين يعتمدون فى أغلب الأحوال
خارج البلاد ، ويفضلون الحصول على ملايين اضافية لانفاقها على
موائد اللعب فى « نيس » أو مونت كارلو ، على الحفاظ على عدد
من الهكتارات فى « الجليل » أو « اليهودية » التى لم تطأها أقدامهم
فى يوم من الأيام . ولا مجال هنا للخوض فى العلاقات اليهودية
العربية ، ولكن قضية بيع وشراء الأراضى الفلسطينية من الأسباب
العميقة للنزاع .

وقد أقيمت الكيبوتزات فى هذه الأراضى . ولم تقتصر
مهمتها على استغلال الأراضى بل الحفاظ عليها أيضا . ويقول
الشاعر الفرنسى فيرلبن ، فى بيتين من الشعر أعشقهما بشكل
خاص .

كان يكره المحراث والسيف

أى ما يسمى الجندى - الفلاح .

ولكن الكيبوتزات كانت لا تكره الجرارات أو البنادق ، بل
على العكس ، فقد اعتبرت أن كلا منهما مكمل للآخر . وقد اعتمدت
الهاجاناه على الكيبوتزات . والهاجاناه هى التنظيم العسكرى
اليهودى أثناء الوصاية البريطانية الذى تحول فيما بعد الى الجيش
الاسرائيلى الحالى . وقد تكونت فرق الجيش الأساسية من هذه

الكيبوتزات تم تدريب أفراد الجيش في اطارها ، كما حفظت عندها الأسلحة .

ويقول موسى يحديم ، في كتاب صدر عن الكيبوتزات ضمن سلسلة رسمية تحمل اسم « اسرائيل اليوم » أن إعادة بناء اسرائيل جزء لا يتجزأ من حلم الكيبوتز .

يجب أن يستمع المرء الى أعضاء الكيبوتزات القدامى ، وهم يروون ذكرياتهم ! انها ليست حكايات فلاحين بقدر ما هي قصص محاربين قدامى . فالجانب العسكرى فى الكيبوتز ، ليس كما قد نتصور ، مجرد حدث تاريخى تخطاه الواقع الحالى . لا ، فالكيبوتز لا يزال ضربا من الاستيطان الاستراتيجى ، ولا ينطبق ذلك بشكل خاص على الكيبوتزات المتناثرة حول تل أبيب أو حيفا . ولكن الكيبوتزات القائمة على الحدود ، وبالأخص الكيبوتزات الممتدة على طول الحدود السورية والمتاخمة للبحر الأحمر ، فهي أقرب الى أن تكون فقط حراسة متقدمة من أن تكون مجرد مشروعات زراعية .

وهناك فيلق خاص فى الجيش الاسرائيلى - يسمى « الناحال » (تتكرر هذه الكلمة من الحروف الأولى لكلمات عبرية معناها « الشبيبة الرائدة المناضلة ») مكلف بدمج الخدمة العسكرية بحياة الكيبوتزات . فمن الممكن أن يؤدى المواطن الاسرائيلى الخدمة العسكرية فى « الناحال » تماما كما قد يؤديها فى سلاح « المظلات » أو « المدرعات » . ويقضى المجددون الجدد فترة التدريب فى الكيبوتزات للتعود على الحياة الزراعية بعد قضاء عدة شهور فى التدريب العسكرى . وعلى أثر انتهاء فترة التدريب ، يستمر المجدد فى الخدمة العسكرية ويلحق بأحد المراكز الموزعة على

الحدود في المناطق الاستراتيجية . وتقام هذه الكيبوتزات ، كما تقول إحدى نشرات الجيش الاسرائيلي بكل حياد : « في المناطق المعرضة للمخاطر أو التي تسهل إقامة المدنيين فيها » .

والكيبوتزات اللذان أقيما أخيرا في الضفة الغربية للأردن من صنع « الناحال » . وقد أجاب الجنرال ديان ، ردا على الاجتماعات التي ثارت داخل اسرائيل نفسها وفي الخارج ، فقال « حتى اذا اضطررنا الى الرحيل ، فسيكون هناك استيطان يهودي لا يقبل التراجع عنه » .

والأغلبية الساحقة من قادة الجيش الاسرائيلي ، ومنهم بالأخص الجنرال بارليف ، ينتمون أصلا للكيبوتزات ، وكذلك أيضا وزراء الحكومة الحالية . وتتميز المدارس الابتدائية والثانوية في الكيبوتزات بطابعها القومي والعسكري المتطرف بشكل ملحوظ . وتحرص الكيبوتزات على التمسك بطابعها اليهودي الصرف ، ولذا يجب ألا ندهش عندما يتضح لنا أن هذه الكلمة لا ترمز في الشرق الأوسط الى التعاون بل الى التغلغل .



ولا تبقى بعد ذلك سوى الناحية الجماعية التي تحرص اسرائيل على إبرازها .

لا شك أن الحياة داخل الكيبوتزات جماعية ، وإن لم تكن على نفس الفرار في كل الأماكن . وترتبط الكيبوتزات بالأحزاب السياسية فهناك كيبوتزات للماباي وللمابام ولأشدوت هافودا ولأحزاب الدينيّة . ولا يعيش أفراد الكيبوتزات على نفس الأسلوب ، كما أن مفاهيمهم تختلف من كيبوتزالي آخر . وأقرب الكيبوتزات الى المفهوم الأصلي لتأسيسها هي كيبوتزات المابام التي

تدعى أنها اشتراكية شأنها فى ذلك شأن حزب المابام نفسه • على أن الاشتراكية التى يقصدونها خيالية تماما •

فالواقع أنه لا يكفى لكى يكون الواقع اشتراكيا لمجرد إلغاء النقود داخل الكيبوتز وتناول الطعام بشكل جماعى وتربية الأطفال فى دور الحضانة وإنشاء مدرسة جماعية • ويقولون عادة فى إسرائيل أن الكيبوتزات « جزر اشتراكية صغيرة وسط عالم رأسمالى » • وهذا سخف أثبتت التجارب فشله بشكل قاطع •

وقد أصبحت الكيبوتزات مرتبطة اليوم بالنظام الرأسمالى من كافة الجوانب ، وغدت تابعة له بشكل وثيق • وكما كانت الدولة تدرك أهميتها كواجهة دعائية فإنها تجزل فى معاونتها لها • ولكن المعونة لا تساعد الكيبوتزات على موازنة اقتصادياتها فتظل « اشتراكيته » شكلية ووهمية ما دامت غير قائمة على المستوى الانتاجى •

وبصفة عامة يمكننا أن نلخص الواقع كما يلى : يحتاج الكيبوتز الى التصنيع حتى يستطيع أن يقف على قدميه • ولما كان الفارق كبيرا بين أسعار منتجات الصناعة وأسعار منتجات الزراعة ، فإنه يتعين على الكيبوتز أن يبحث عن النقود من مصدر آخر غير موارده الذاتية ، وقد سبق أن قلنا أن الدولة تساعد الكيبوتز كما يخصص لها جزء من الأموال التى تجمعها الوكالة اليهودية فى الجاليات اليهودية فى الخارج • ولكن كل هذه المصادر لا تفى بالحاجة ، ولذا تقترض الكيبوتزات ، ويتم ذلك بالطبع فى الإطار الرأسمالى ، أى أنها تقترض من الجهات التى تتوفر لها امكانيات كبيرة ، أى المصارف •

وهكذا تصبح الكيبوتزات فى حالة تبعية للرأسمالية وللدوائر المالية الكبيرة عن طريق القروض •

وهذا نوع من الترابط لا يقبل الانقسام . وبمجرد ارتباط الكيبوتز بالبنك ، فانه ينضم فورا الى الاقتصاد العام للبلد سواء شاء أم أبى . وهو يرتبط بتوسع اقتصاد البلد أو أزماته ، لأنه جزء لا يتجزأ من النظام الرأسمالى . وهكذا تواجه الكيبوتزات مشاكل عديدة وعلى رأسها مشكلة اليد العاملة اذ تضطر حتى الى استخدام اليد العاملة المأجورة .

لماذا ؟ لأن الكيبوتزات تفتقر الى اليد العاملة ، بالرغم من مساهمة « الناحال » (الذى لا يقدم سوى الشبان الذين يؤدون الخدمة العسكرية) . ولكن هناك سبب أساسى ، وهو أن اليد العاملة المأجورة ، تعطى الفرصة ، فى حدود النظام الاقتصادى القائم ، للتشغيل أو التوفير . فأعضاء الكيبوتز ثابتون ، والكيبوتز مسئول عن توفير احتياجاتهم سواء سارت الأمور على ما يرام أو لم تسر . أما العامل الذى يتقاضى أجرا ، فهو فى وضع مختلف ، وضع اليد العاملة ازاء صاحب العمل .

فالكيبوتز مرتبط بالبنوك عن طريق القروض ، ويدخل بذلك فى اطار أصحاب الأعمال ؛ وهو يستغل العاملين به كأي صاحب عمل آخر . وهكذا لا يبقى أى شئ اشتراكى حقيقى . لاشك أن كل أفراد الكيبوتز يشتركون فى عمليات طهو الطعام وغسل الأوانى . وقد رأيت عضوا فى البرلمان يضع على صدره فوطة كبيرة ويدفع عربة صغيرة محملة بأوانى الشوربة . ولكنى لم أحرك ساكنا لأنى لا أعتبر ما رأيت من معالم الاشتراكية ولكن من المظاهر الفلكورية . ويمتلك هذا الكيبوتز مصنعا صغيرا يستخدم فيه عمالا بوصفه صاحب عمل . ولذا فقد بدت لى هذه الفوطة كستار كبير لاختفاء الحقيقة المخرجة .

والكيبوتز يعبر فى رأى عن المأساة الكبرى التى تعيشها إسرائيل ، ذلك أن أفضل صفات المواطنين الاسرائيليين تنحرف بل

وتحطم في أغلب الأحوال بسبب العقلية المحيطة بها • فبقدر ماتكون الفضائل كبيرة ، بقدر ما يكون من الخطر الانحراف بها • فالشجاعة والقدرة على العمل ليست قيما مستقلة بذاتها ، وتاريخ البشرية عامر ، حتى في مراحلها الحديثة ، بنماذج لبلاد عديدة خسرت الكثير باستخدام طاقاتها من أجل تحقيق أهداف سيئة • وكان من الممكن أن تتحقق أهدافا ايجابية باستخدام هذه الطاقات بطريقة أخرى • وتعيش اسرائيل بأكملها في أرفع أشكال التطرف القومي ، بالرغم من محاولتها إخفاء هذا التطرف بالتشدد بالألفاظ ، ويؤدي هذا التطرف الى افساد كل شيء ، ولا يمكن أن تقوم اشتراكية حقيقية على هذه الأسس •

لن تكون لحركة الكيبوتزات أبعاد واسعة • فبقدر ما تنساق اسرائيل أكثر فأكثر في طريق الدول الرأسمالية ويرتبط اقتصادها باقتصاد هذه الدول ، اقتصاد الولايات المتحدة أولا ، تم اقتصاد ألمانيا الفدرالية بدرجة غير هينة ، بقدر ما يتحول الكيبوتز بالتالي الى مؤسسة بالية تعجز شيئا فشيئا عن الحفاظ على أى شيء سوى واجهتها الجماعية •

وقد كتب موسى كيريم يقول، ويا لأناقة الكلمات التي يستخدمها في التعبير : « لا شك أن الحركة تواجه مصاعب ، خاصة في مجال اليد العاملة ، وأنها لا تتمتع الآن بالتأثير الكبير الذي مارسته في الماضي » ، ولذا فلا بد لها أن «تتغير لكي تتلاءم مع مقتضيات العصر» •

ولكن الكيبوتزات تفقد سكانها • ويمر عليها أعداد كبيرة ، ولكنها لا تستقر بها • ويتجه الشباب بالأخص نحو أنماط أخرى من المياف بالرغم من الخطب الملهبة التي تذيعها « الناحال » • فمكاتب تل أبيب تغص بشباب وشابات يفضلون حياة المدينة • ويهجر الكثيرون الكيبوتزات لأن الحياة الخاصة التي تفترض الجماعية البدائية

لم تعد محتملة في نظرهم في المدى الطويل . ويتركها البعض الآخر لأن لوائحها تقضى بالآ ترسل الشباب الى الجامعات الا بالقدر الذي يلزمها لتشغيل مرافقها . فاذا كان الكيبوتز في حاجة الى طبيب مثلا ، فانه يدفع مصاريف طالب واحد ، لا طالبين أو ثلاثة حتى اذا كان هناك عدد منهم له نفس الميول أو الاستعدادات . وقد قابلت عددا من الذين هجروا الكيبوتزات « لأنها ليست في حاجة » الى تخصيص في اللغة أو التاريخ أو الجغرافيا . . .

على أن الأغلبية تترك الكيبوتزات ، لأنها تدرك عن وعى أو غير وعى أن هذه الحركة خادعة ومناقضة لنفسها .

ان الاشتراكية على الطريقة الاسرائيلية مجرد ضمير الى الماضى بالنسبة للبعض ومبرر يتذرع به البعض الآخر ، ولكنها لم تعد تتمتع على أى حال بجاذبيتها السابقة . وقد تحولت حركة الكيبوتز، بتطورها الحالى ، الى أداة فى يد القوة العسكرية ، تماما كما كانت أيام انطلاقها الكبيرة .

٧- مفهوم فريد من نوعه للنقابية

يقع مبنى الهستدروت الضخم في الحى الشمالى بتل أبيب وهو يحتل مساحة كبيرة لاقامة مجموعة من المباني • وتبدو كتل المكعبات البيضاء التى يتألف منها المبنى صامتة فى مظهرها الخارجى • أما فى الداخل فهى عبارة عن متاهات من الممرات والأدراج ومئات المكاتب والمصاعد العامرة دائما بالافراد والحركة دائبة فى المبنى • • والهستدروت هو الاتحاد العام للعمل فى اسرائيل • وهو أحد معاقل الدولة •

ويعتبر الهستدروت الاتحاد النقابى الاسرائيل الوحيد اذا استثنينا جماعة نقابية دينية لا أثر لها تقريبا • ويتمتع الهستدروت باحتكار فعلى ويضم حوالى ٧٠٪ من السكان ، عن طريق أعضائه وأفراد أسرهم • وهو يتمتع بسلطات واسعة وبامكانيات مالية هائلة •

ويسيطر الهستدروت باستثماراته على ٢٢ ٪ من الاقتصاد القومى ، خاصة فى قطاعات المبانى والاستيراد والتصدير والنقل البحرى وشركات الاتوبيس والتاكسى والبيع ونقل المنتجات الزراعية • ويمتلك الهستدروت مصرفا خاصا به ، وهو ثانى مصرف فى اسرائيل ، كما انه يساهم فى عدد كبير من المؤسسات بالاشتراك مع رأس المال الأجنبى الأمريكى والألمانى الغربى فى أغلب الأحوال • وهكذا يعتبر الهستدروت تنظيما نقابيا عماليا من طراز فريد فى نوعه ! ولا شك انه من المفيد أن نتمعن فيما يمثله هذا التنظيم بالفعل •

ارتبط الهستدروت أولا ببداية تطور الجالية اليهودية فى فلسطين ، ثم ارتبط بعد ذلك بدولة اسرائيل ، ولذا فهو من نتاج

طبيعة هذه الجالية وتلك الدولة • كان طابع الهستدروت زراعيا فى أول الأمر ، عندما كانت الهجرة اليهودية تعتمد على الكيبوتزات ، ثم تحول شيئا فشيئا الى التصنيع حتى وصل الى شكله الحالى مع انشاء دولة اسرائيل وانطلاقها • ويؤدى الهستدروت ، فى المجال الخاص به ، نفس الدور الذى يقوم به كل من الجيش والمدرسة • فهو فى الواقع الجناح الثالث فى المجموعة الثلاثية التى تتولى تشكيل وتنميط المواطنين ، والهستدروت مكلف بتولى أمور الطبقة العاملة ومجال العمل عامة من وجهة نظر صهيونية صرفة ، شأنه فى ذلك شأن الدولة التى أقامته وتستخدمه أداة لها • ولا يخفى قادة الهستدروت هذه الحقيقة ، فكلهم أعضاء فى الأحزاب الصهيونية ، كما أن أغلبية الوزراء تحتل المناصب النقابية الرئيسية •

ماذا يعنى ذلك من الناحية العملية ؟ انه يعنى أن النقابة فى اسرائيل لا تهدف أساسا الى تنظيم العمال ليدافعوا عن حقوقهم ، وليحصلوا على مطالبهم ، بقدر ما تهدف الى حصرهم فى الحدود التى لا تعرض مركز الحكومة للمصاعب •

• يضمن الهستدروت قدرا غير ضئيل من المزايا الاجتماعية خاصة فيما يتعلق بالاجازات والخدمات الطبية والمعاشات • ولكنه فى نفس الوقت ، من ضمن وأدق أدوات البلبلة السياسية التى يتردى فيها حتى الآن الجانب الأكبر من رأى العام الاسرائيلى •

فالطبقة العاملة الاسرائيلية معرضة أكثر من أى طبقة عاملة أخرى للمتعاب بحكم تكوينها • • فأغلب أفرادها من المهاجرين الذين نزحوا بعد عام ١٩٤٨ ، ولم يكونوا من أبناء الطبقة العاملة فى بلادهم الأصلية ، أى أنهم يفتقدون أصلا التراث العمالى • فالهجرة اليهودية الى اسرائيل لا تنتمى الى الفئات العمالية سواء أكانت وافدة من أوروبا أو أفريقيا أو آسيا • وكان من الممكن أن تصبح النقابة خير

مدرسة لتنمية الوعي الطبقي . كان ذلك شرف النقابة وواجبها ، ولكن المنهج الصهيوني حال دون ذلك . وتاريخ الحركة النقابية الاسرائيلية يوضح تماما ما أدى اليه هذا الطريق . فمُنذ قيام الهستدروت فى عام ١٩٢٠ وحتى انشاء اسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، لم يكن أصحاب الأعمال هم العدو الرئيسى للهستدروت (وكان يسمى آنذاك منظمة العاملين اليهود فى فلسطين) بل العمال العرب الذين كان يتعين استبعادهم من سوق العمل بكل وسيلة وبأى ثمن . أما الآن فان هدف الهستدروت المعلن ليس التقدم بالطبقة العاملة والعاملين الى الأمام ، بل تدعيم الدولة اليهودية فى حد ذاتها .

وهناك حقيقتان يبدو لى أنها تحملان مغزى كبيرا . ففي عام ١٩٦٥ خاض عمال المنشآت الاسرائيلية ٢٧٧ اضرابا ، لم يؤيد الهستدروت منها سوى ٦٦ اضرابا . أما كل الحالات الأخرى ، وعددها ٢١١ ، فقد وقف فيها الهستدروت فى صف أصحاب العمل لاجباط الاضرابات .

أما الحقيقة الأخرى فتتعلق بعلاقات الهستدروت الخارجية ، كان هذا الاتحاد عضوا فى اتحاد النقابات العالمى ، ولكنه انسلك عنه لينضم الى الاتحاد الدولى للنقابات الحرة . ويرجع السبب الأصلى فى ذلك الى ارتباط الهستدروت الوثيق ، سواء من النواحي الاقتصادية أو السياسية ، بالاتحادات العمالية فى الولايات المتحدة (اتحاد العمال الأمريكى ومؤتمر المنظمات الصناعية) .

وتتم الزيارات وتتوثق العلاقات والاتصالات بين الطرفين ، بل أن القادة الأمريكيين دفعوا اتحادات عمال الموانئ والشحن فى مناسبات عديدة الى مقاطعة السفن المصرية والسعودية ردا على موقف البلدين من اسرائيل . كما أن المساءدات التى تقدمها الاتحادات الأمريكية للهستدروت ذات طابع مادى مباشر . وفى مقابل ذلك

يقوم الهستدروت بدوره كممثل مخلص « للعالم الحر » عن طريق معهده الأفرو أسيوى الذى نجح فى التغلغل الى حد ما فى بعض الجمهوريات الفتية بأفريقيا السوداء .

ويقول المسئولون عن الهستدروت أن اتحادهم يقوم بدور حاسم فى تحويل المهاجرين النازحين من كل الجهات الى مواطنين إسرائيليين . وهذا صحيح ، ولكن من المؤسف حقا أن الهستدروت يبت فىهم روح التطرف القومى الخطيرة .

لم يكن فى إسرائيل عند قيامها سوى ٢٢٪ من سكانها الحاليين . ولهذا الرقم دلالة اذ يوضح مدى اتساع عملية الهجرة . وعلى عكس الفكرة الشائعة التى تكاد ترتقى الى مرتبة الشعار ، فإن نسبة الاسرائيليين ، من الضحايا المباشرين للنازية (أى الذين هربوا منها أو نجوا من جرائمها) ضئيلة نسبيا . فالاحصائيات التى أذاعتها إسرائيل ذاتها تقول انهم لا يتعدون ١٥ أو ١٦٪ من السكان الحاليين فى الدولة اليهودية .

من أين وفدت اذن بقية المهاجرين ؟ أقلهم جاء من أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وبعضهم جاء من وسط أوروبا (أى من البلاد التى قامت منها نظم ديمقراطية شعبية) والبعض الآخر من آسيا وأفريقيا .

ويحتاج هذا الخليط المتنوع الى عملية توحيد . على أن هذا الخليط العجيب كان يضم العديد من القناصة التى لا تميل ، لأسباب جدية ، نحو الأفكار المتقدمة أو نحو التعايش بحكم انتماءاتها الاجتماعية أو دوافع انتقالها الى إسرائيل . فبعض المهاجرين معاد للسوفييت والبعض الآخر معاد للعرب ، ولا شك أن تأجيج المشاعر القومية الصهيونية لم يساعدهم قط على التخلص من هذه الاتجاهات . أما شباب « الصابرا » المولدون فى إسرائيل التى يعتبرونها وطنهم

بلا منازع ، فانهم جديرون فى الواقع بأن يسيروا فى طريق آخر غير الطريق المحفوف بالمخاطر الذى يساقون اليه . وكلمة « صابرا » تعنى أصلا نوعا من الصبار المنتشر فى اسرائيل وهو شائك الملمس من الخارج ولكن لبه حلو . وتطلق هذه التسمية على الذين لم يولدوا فى المهجر بل على أرض اسرائيل . وهم يمثلون ٤٠٪ من سكان اسرائيل اليهود ، ولا شك أن آرائهم واتجاهاتهم فى المستقبل ، والأفكار التى تلقن لهم والمبادئ التى ينشئون عليها ، ستكون من العوامل الحاسمة فى مستقبل هذا البلد ومستقبل الشرق الأوسط . ويجب أن أكرر أن هؤلاء المواطنين يمرون بمراحل ثلاث أساسية : المدرسة والجيش والهستدروت بمنظمااته المختلفة .

ولا يدعو الأمر الى الاطمئنان فى ظل الجو السائد فى اسرائيل . وقد سألت أحد أعضاء المكتب التنفيذى للهستدروت عن سبب اعتناقه المبادئ الصهيونية ، وذلك خلال مناقشة لى معه . فراح يشرح لى المصير العظيم المتوقع لشعب التوراة . ولما أشرت الى أن أشياء كثيرة تغيرت فى العالم منذ أربعة آلاف سنة ، أجبني بكل بساطة : « ولكن رسالة التوراة بالنسبة لى شيء ملموس ، وحالى تماما ككل ما قرأت فى الصحف بالأمس فقط ١٠٠ » وقد ردد هذا الكلام ليبرر ضم القدس والضفة الغربية للأردن . ويبدو لى أنه من المخيف حقا أن تكون رسالة التوراة على هذا النحو !

أما أعضاء الهستدروت المستنيرين ، وعلى رأسهم الشيوعيون ، فيطالبون بأن تقوم هذه المؤسسة بدورها كمنظمة عمالية . ولكن يجب أن يتحرر الهستدروت أولا من قبضة الدولة ، ولا ينساق وراء النقابات الأمريكية ، أما فى مجال الادارة الداخلية ، فيجب ألا يتعرف الهستدروت بالنسبة للمنشآت التى يمتلكها بالكامل أو التى يشرف عليها ، كأي صاحب عمل آخر ، بل يجب أن يمثل العمال فى مجالس ادارة هذه المنشآت بنسبة ٥٠٪ على الأقل . وتلك مطالب معقولة ،

ولكن البيانات الملتهبة التي صدرت من الهستدروت قبل حرب الأيام الستة وبعدها لا توحى للأسف بأن قيادة الهستدروت ستسلك هذا الطريق .



لا شك أن هناك مشكلة بطالة في اسرائيل . وعندما كنت هناك ، في ديسمبر ، نوقشت المشكلة في الكنيست حيث تعرض الجنرال ايجال آلون ، وزير العمل ومنافس الجنرال ديان في السباق من أجل منصب رئيس الوزراء ، لمواقف حرجة . ومن الصعب أن يحصل المرء على أرقام دقيقة أو تقريبية لضحايا البطالة . فالفارق بين الأرقام الرسمية وغير الرسمية كبير ويرجع ذلك الى حد كبير لاستحالة تقدير مدى البطالة الحقيقية بين العمال العرب لأنها شبه مزمنة بينهم ، كما أن العمالة الجزئية ، عن طريق الاشتغال بضعة أيام في الشهر ، منتشرة نسبيا .

وقد تراجعت البطالة بسبب الحرب اذ أدت الى استدعاء عدد كبير من الأفراد للخدمة العسكرية ، كما حافظت بعد ذلك على وجودهم في الجيش . وكان مد فترة الخدمة العسكرية من أسباب هذا التراجع وقد تحسنت الأوضاع نوعا ما بعد المصاعب الاقتصادية التي شهدتها سنتي ١٩٦٥ ، ١٩٦٦ . وما زال هناك ثلاثون ألف عاطل ، وهو رقم ليس بالبسيط بالنسبة لبلد صغير . على أن المشكلة الأساسية لا تتمثل في البطالة بل في استحالة تكافؤ الفرص بين الاسرائيليين أنفسهم في سوق العمل .

فهناك تفرقة عنصرية واضحة ضد العرب في اسرائيل . ولا تخفى هذه الحقيقة بل انها تعلن أحيانا في صراحة عدوانية وعاصفة . ولكن هناك أيضا تفرقة أكيدة بين اليهود أنفسهم بعضهم وبعض حسب المناطق المختلفة التي جاءوا منها . فاليهود المنتمون الى

أصل أوروبى أو أمريكى ، الذين يسمون « يهودا بيضا » لا يعتبرون « اليهود السود » النازحين من أفريقيا أو آسيا ، أندادا لهم . ولا شك أن هذه التفرقة ليست رسمية لأنها لا يمكن أن تكون كذلك ، ولكنها تتمثل فى أبسط تصرفات الحياة اليومية .

فى مجال الاسكان مثلا ، رأيت فى يافا وحيفا يهودا مغاربة وتونسيين ولا يعيشون فى أوضاع أفضل من أوضاع العرب . مع بعض الفروق الضئيلة ، فهم يسكنون فى أكواخ لاتكاد تختلف حالتها عن حالة أكواخ العرب . وقد أقامت الوكالة اليهودية (ومن اختصاصاتها تنظيم الهجرة) حيا راقيا فى شمال الناصرة للمهاجرين الذين يسمونهم هنا « الوافدين الجدد » . ويبلغ عدد سكان مدينة الناصرة ٣٥ ألفا أغلبهم من العرب . أما الناصرة الجديدة اليهودية المقامة على نلال تشرف على المدينة فتتألف من منازل مريحة ، أنيقة وحديثة للغاية . وكانت هذه المساكن مخصصة فى رأى الوكالة للمهاجرين . ولكنهم ليسوا أى مهاجرين على أى حال !

كانوا قد أقاموها ، حسب تفكيرهم للمهاجرين من أصل أوروبى ، قادمين من بولندا ورومانيا ، ولكن التوقعات المتفائلة للمنظمات الصهيونية لم تتحقق اذ أن المهاجرين الأوروبيين كانوا أقل من أن يشغلوا كل المنازل الجميلة التى أقيمت من أجلهم ! وقال بعض أصحاب التفكير المنطقي : ما علينا . لماذا نتركها خاوية ؟ الأفضل أن يستفيد منها اليهود القادمون من أفريقيا الشمالية ومصر واليمن الذين يعيشون فى ظروف صعبة .

وقد يبدو هذا التفكير منطقيا ، ولكنه يتعارض مع التفرقة الحقيقية . فاقامة اليهود الشرقيين فى « الناصرة الجديدة » سابق لأوانه . لذا فقد ظلت مساكنها خاوية جزئيا وظل « اليهود السود » فى أكواخهم .

وفى مجال التقاليد ، فان الزواج بين يهود « سود » ويهود « بيض » يستدعى فى حالات كثيرة قدرا من الشجاعة الحقيقية من جانب الطرفين . وقد قابلت أسرة من أصل مجرى كانت إحدى بناتها تريد أن تتزوج من يهودى تونسى ، وعرفت المأساة الحقيقية التى تعرضت لها الأسرة . كان الأبوان لا يعترضان على أى شىء فى شخص الشاب سوى أصله « الشرقى » . ويجب أن أقول أن الحزن الذى انتاب الأم كان شبيها الى حد كبير بالحزن الذى انتاب صديقة لى من نيويورك عندما أفادتنى عن « المصيبة الكبرى » التى حلت بها . . . وهى خطبة ابنتها لشاب من أصل بورتوريكى ! ولو أن هذه الحالة كانت شاذة لما أوردتها ، ولكنها تدخل للأسف فى نطاق اتجاه عام سائد .

أما مجال التشغيل ، فهو موصوم أيضا بالترقة العنصرية . ولا مجال للكلام عن العرب ! ويواجه اليهود الآسيويون والأفريقيون مصاعب لا يمكن التغلب عليها . ولو أننا تصورنا أن هؤلاء القوم يحصنون فورا ضد الرواسب التى كانوا يعانون منها ، كما كنا واقعيين . فالإسرائيليون ليسوا محصنين ضد سموم التفرقة العنصرية . ولا يجد أى « يهودى أسود » عملا مهما أو مركزا مستولا . وهم يعللون ذلك بأن مستواهم الثقافى لا يضارع مستوى غيرهم من المهاجرين ، وذلك للملابسات مختلفة . وهذا صحيح أحيانا، ولكن التفرقة قائمة فعلا عندما لا يكون الأمر كذلك .

ويمكننى أن أقدم مثلا واحدا من بين عشرات الأمثلة المشابهة ، وهو خاص بفتاة من الاسكندرية ، وهى يهودية مصرية جاءت الى إسرائيل بعد حرب السويس ، وتتكلم الانجليزية والفرنسية بطلاقة، بمستوى الشهادة الثانوية ، كما تجيد أعمال المحاسبة . وقد ظلت جميع المصارف والادارات مغلقة فى وجهها لعدة شهور متوالية وأفادها المستدروت ، الذى لجأت اليه ، ما دام الحصول على عمل فى

اسرائيل يستدعى اللجوء الى النقابة ، فانها تستطيع أن تستخدم
فى البيوت حتى يوفروا لها العمل المناسب . وهذا ما أقدمت عليه
فعلا لكى تعيش .

ويزاول « اليهود السود » كل الأعمال المنحطة : حمالين ، عمال
مصاعد ، عمال يدويين ، فتيات مقاه ، طاهيات . الخ . وقد قصوا
لى حكاية شاب له نفس كفاءات ومؤهلات الفتاة السكندرية ، وقد
استبعدوه هو أيضا من كل الأعمال التى يصلح لها بسبب أصله .
ولما يئس من توالى رفض تشغيله ، أجاب بخطابين على عرض واحد
للعمل . وقد أورد فى الخطابين شهاداته الحقيقية ، ولكنه وقع على
أحد الخطابين باسمه الحقيقى الذى يؤكد أنه « شرقى » ووقع على
الآخر باسم مستعار له رنين « غربى » . وقد تسلم ردين ، الأول
بالرفض وهو موجه « لليهودى الأسود » والآخر بالترحيب والتحمس
وهو موجه « لليهودى الأبيض » المدعى .

ومن الواضح أن عملية انصهار السكان المنتمين الى حضارات
مختلفة تماما بعضها عن بعض يثير مشاكل معقدة أمام اسرائيل .
ولا يحق لنا أن نطالبها بحل كل هذه المشاكل دفعة واحدة ، ولكن
من حقنا أن نبدي دهشتنا وقلقنا من هذا الاصرار على اختيار الطريق
المجانى للتقدم والاستنارة سواء فى المجال الداخلى أو الخارجى

٨ - تحریک سیاست اسرائیل

لا يمكننا أن نحكم على سياسة اسرائيل ، الا من خلال سياستها الفعلية وفي حدود كونها لها نفس حقوق الدول الأخرى . كما لا يمكن الحكم أيضا على أعمال وآمال الرجال والنساء الذين اختاروا الانضواء تحت لوائها ، الا من خلال تلك الآمال والأعمال . وينطبق ذلك على كل المجالات سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية .

ومن هنا فان اصرار حكومة اسرائيل على السير في اتجاه معين يستلقت النظر بشكل خاص . واذا استرجعنا الأحداث باختصار لاتضح لنا الخط العام الذي يحدد مواقف القادة الاسرائيليين منذ حرب كوريا عام ١٩٥٠ ، حتى الآن . فقد ثارت مناقشات صاخبة في الكنيست حول الموقف من الحرب الكورية ، انتهت بنجاح الحكومة في الحصول على التأييد في مساندتها للتدخل الأمريكي . وهكذا وقفت اسرائيل في صف الولايات المتحدة في هذا النزاع الذي جعل العالم ، لأول مرة منذ سنة ١٩٤٥ ، على حافة حرب عالمية ثالثة . ولم يكن موقف اسرائيل هذا ، سوى بداية لانحياز مستمر لسياسة المعسكر الاستعماري ، وقد تؤدي التناقضات بين الدول ابرأسمالية الكبيرة الى زعزعة موقف اسرائيل من بعضها ، ولكنها لم تتدخل أبدا عن المعسكر الغربي .



في عام ١٩٥٦ تواطأت اسرائيل مع حكومتى فرنسا وانجلترا ، فيما يسمى « ضربة السويس » وهي تدبير هجوم ضد مصر لأنها أمتت القنال . وفي عام ١٩٥٧ وافقت حكومة اسرائيل بالتمام والكمال على « مبدأ أيزنهاور » الذي يسمح لقوات الولايات المتحدة

بالتدخل فى الشرق الأوسط اذا رأى الرئيس الأمريكى أن هذا الاجراء ضرورى ٠٠٠ وفى عام ١٩٥٨ سمحت اسرائيل للطائرات الانجليزية بالطيران بكل حرية فوق أراضيها لارهاب الجمهورية العراقية الوليدة ٠٠٠ والقائمة طويلة ولا زالت تطول حتى انها غدت حملة ! ولندكر أيضا بشكل خاص موقف اسرائيل من حرب الجزائر ٠

كانت حكومة اسرائيل تؤدى بلا أدنى قيد أو شرط السياسة الاستعمارية للأوساط الحاكمة فى فرنسا ٠ وهكذا وقفت اسرائيل ضد مصالح الشعب الجزائرى والشعب الفرنسى ، بل والشعب الاسرائيلى نفسه فى المدى الطويل ٠ وأدى منطق هذا السلوك الى وقوف أشخاص ، مثل الجنرال ديان ، (وهو مرتبط شخصيا بجاك سوستيل) فى صف « منظمة الجيش السرى » فى أواخر أيام الحرب ٠ وكان ديان يود أن يساعد هذه المنظمة الارهابية على خلق « معقل وهران » تعتصم به لتلحق الهزيمة بجيش التحرير ٠ ولكن الواقع كان أقوى من هذا الهذيان الذى يعطينا صورة للملامح الأساسية فى الفكر السياسى لقادة اسرائيل ، ويساهم فى توضيح أسباب تشكك الشعوب العربية من هذه الدولة التى لم ترحب قط فى يوم من الأيام بحصول أى شعب عربى على الاستقلال ٠

ولم تتغير اسرائيل اليوم ٠ كل ما فى الأمر أن تذبذبات السياسة الدولية ومتطلبات سياستها الخاصة بها ، دفعتها الى التحالف مع أقوى دول الغرب وأكثرها استعدادا للتدخل فيما لا يعينها ٠٠٠

وقد ارتضت اسرائيل أن تتحول الى عميل للاستراتيجيات الأمريكية فى الشرق الأوسط فى مقابل تأييد الولايات المتحدة لها فى المجال الدولى ٠ لقد قابل ليفى أشكول الرئيس جونسون فى حدود هذا المفهوم ٠ فقد جاء يطلب الطائرات والوعود بتأييده ، وقسم فى

مقابل ذلك المركز الجغرافي لبلده وسط العالم العربي الذي يسير بخطى ، ولو متعثرة وصعبة ، نحو التقدم ، ويثير بذلك قلق البيت الأبيض ودوائر المال الكبيرة في « دول ستريت » .

والاحتكارات الأمريكية الكبرى ، صاحبة النفوذ السياسي الحقيقي ، ومنها بالأخص شركات البترول تود أن يكون « شركاؤها » أكثر طوعية . وتستطيع إسرائيل أن تقوم بدور الممثل المنشط والمخلص لمصالح ما وراء الأطلس في هذا الجزء من العالم .



على أن الاخلاص لا يباع بالقطاعي في هذا النوع من الصفقات، فالقوى القائمة لدولة إسرائيل في حاجة الى الولايات المتحدة سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو العسكرية حتى انها لايمكنها أن تتجاسر على ابداء أى تمنع ، اذ يؤدي مثل هذا الموقف الى سلوك طريق مخيف بالنسبة لقادتها .

وفي الظروف الراهنة تسيطر مأساة فيتنام على المسرح العالمي، ففي كل مكان يقف الشرفاء والعقلاء ضد الاعتداء الاجرامى عليها وفي صف مقاومتها البطولية . وتشعر الشعوب التي تريد أن تعيش حرة أن قضية فيتنام هي قضيتها وتعلن تضامنها معها . وترتفع الأحداث على مستوى الحكومات ، وخارج الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية لتدين المعتدين ، ولكن حكومة إسرائيل لا تضم صوتها الى هذه الأصوات . ولم يتورع وزير دفاعها الحالي ، الجنرال ديان ، عن قبول دعوة القيادة العليا الأمريكية ، للذهاب الى جنوب فيتنام حيث نزل ضيفا على هيئة أركان الحرب .

أما الشعب الاسرائيلي ، فلا يعرف أى طريق يسلك في ذلك الجو النفسى المسموم الذى يعيش فيه ، وقد يكون متعاطفا بشكل غريزي مع الشعب الفيتنامي ولكنه يواجه دعايات متناقضة . فهناك

بعض الاتجاهات اليسارية التي تحاول أن تثبت له أنه يعيش أوضاعا مشابهة لأوضاع فيتنام . ولما كان هذا الادعاء لا يستطيع أن يصمد أمام أى تحليل جاد ، فإن صداه ضعيف . أما الجانب الآخر ، المسيطر على امكانيات صحفية كبيرة ، فيبدي أسفه على مآسى الحرب ، ولكنه يؤيد الولايات المتحدة « في دفاعها عن العالم الحر ضد مشاريع الشيوعية الدولية » . ومن المؤسف حقا أن هذا الموقف له صدى أوسع فى خضم البلبلة التي يتردى فيها الرأى العام الاسرائيلى . ولكن حكومة اسرائيل لم تعترف بعد بحكومة سايجون بالرغم من الحاح أمريكا عليها ، ولكنها لم تعترف على أى حال بجمهورية فيتنام الديمقراطية .

والواقع أن الحكومة الأمريكية تعتبر اسرائيل صديقا يمكن الاعتماد عليه ، خاصة وهى تعاني من انعزالها التدريجى نتيجة لسياستها ازاء فيتنام . وقد حوى الجنرال ديان علنا ، وفى مناسبات عديدة ، شجاعة جنود البحرية وأعرب عن يقينه بأنهم سينتصرون . وعندما سافر أشكول الى الولايات المتحدة حرص على أن يحيى وحدة مواقف وأهداف حكومته وحكومة واشنطن .

ولا يستطيع أى شخص ، ولا حتى أكثر أصدقاء اسرائيل حماسا لها أن ينكر هذه الحقيقة .

وهناك حقيقة أخرى وهى اننى سمعت فى كل أحاديثى مع الأوساط العربية ، سواء داخل اسرائيل أو فى الأرض المحتلة أى توقع النصر للجبهة التحرير الوطنية والاشادة بشجاعة المحاربين الفيتناميين فى الشمال والجنوب . . . وانى لأذكر امرأة من تمرة ، بمنطقة الجليل ، لم تترك فى حياتها قريتها ، وتنوء بمشاكل حياتها ، ولا دراية لها بشئون السياسة ، ولكنها تعى بشكل غريزى الرابطة التي تجمعها برجاء ونساء فيتنام ، اذ قالت لى : « الناس فى فيتنام اخوة لى » .

تعتبر الجالية اليهودية فى الولايات المتحدة ، أقوى الجاليات التى تقدم المعونة لاسرائيل ، وأحسنها تنظيما . فقد تم جمع ٢٤ مليون دولار فى يوم واحد أثناء حرب يونيو ، وفى مدينة نيويورك وحدها . وقد قابلت فى تل أبيب أحد منظمى التبرع وهو صاحب مصنع كبير لتفصيل ملابس الأطفال ، كان قد تبرع هو نفسه بمبلغ كبير كما فرض على عاملات مصنعه التبرع بأجر يوم عمل ، وهذا الرجل فى الثانية والستين من عمره ، وهو من أصل أكرانى . وقد ترك كيبف فى عام ١٩٢٠ مع أسرته التى هاجرت الى أمريكا . وهكذا زاد حقه على « البلاشفة » وأضاف اليه اذراء مجنون حقا للعرب وتعصب صهيونى مرضى حقا فى رأى . وقد استمعت اليه وهو يحكى لى أمام خرائب « صودوم » أن المصفحات الاسرائيلية لن تتوقف فى المرة القادمة الا بعد دخول مدينة الجزائر . ولا شك أنه مما يدعو الى الرثاء أن يكون أصدقاء اسرائيل على هذه الشاكلة .

وكثيرا ما يصادف المرء فى اسرائيل أمثال هذا الرجل من أصحاب الأعمال القادمين من نيويورك وتورنتو ولندن وسيدنى وشيكاغو وباريس أيضا . وهؤلاء جميعا يمثلون دولة اسرائيل فى الخارج ، وهى ربيبتهم المفضلة التى يسبغون عليها رعايتهم . فعلى أثر انتهاء الحرب نظم هؤلاء الرجال « اجتماع أصحاب الملايين » الشهر ، فى القدس بعد « تحريرها » وهم يسهرون الآن على تنمية اقتصاد اسرائيل ويضغطون على الجاليات التى ينتمون اليها حتى لا تغف حركة جمع التبرعات لاسرائيل . وكلنا نذكر « الضريبة » التى دعى اليها البارون روتشيلد (وقد استخدم هذا اللفظ بنفسه) الى جبايتها فى يونيو الماضى من كل الفرنسيين اليهود فجمع أموالا حتى من الذين لا يملكون الا القليل .

ومن الجدير بالملاحظة حقا أن اقتصاد اسرائيل لم يعان من حرب يونيو الباهظة التكاليف فالميزانية العسكرية الاسرائيلية من أكبر

الميزانيات نسبيا في العالم • وكانت كافية حتى قبل العدوان ،
للقضاء على التوازن المالى للدولة لولا الهبات المتدفقة من الخارج ومنذ
يونيو الماضى ، أرسلت الجالية الفرنسية وحدها ٦ مليار فرنك
لاسرائيل • أما المساهمة الأمريكية فهي أضعاف أضعاف هذا الرقم •

وموقف المنظمات الاسرائيلية التى تسيطر عليها العناصر
الموغلة فى رجعيته المرتبطة ارتباطا وثيقا بالنظام الرأسمالى ، من
أسباب دفع حكومة الولايات المتحدة الى تأييد دولة اسرائيل • وهذا
هو ثمن « أصوات اليهود » كما قالت جريدة تصدر فى نيويورك •

وهناك مواكب من كبار رجال الدولة الأمريكية تتوافد على
اسرائيل لتؤكد « للناخبين اليهود » حبها العميق لدولة اسرائيل •
أما جونسون فلم يتمكن من الذهاب بنفسه ، فعوضهم عن ذلك بفيض
من التصريحات الحارة • على أن أحد هذه التصريحات قبل ببرود
اذا انه قال « انه مستعد للدفاع عن اسرائيل ، تماما كما يدافع جنودنا
عن فيتنام الجنوبية » • وقد حزن الكثيرون لهذه المقارنة •

وسافر المرشحون الرسميون للحزب الجمهورى للرئاسة تباعا
الى تل أبيب ، ومنهم السناتور بيرس ، من ولاية ايلينوس الذى دعا
الاسرائيليين الى « عدم التخلي عن شبر واحد من الأرض » ، ورومنى ،
حاكم ولاية ميشنجام الذى صرح انه لا يستطيع أن يخفى « الاضطراب
الروحى الذى أثاره فى نفسه وجوده فى اسرائيل • وقد أوضح على
التو أن هذا الاضطراب يرجع الى أن « مصير العالم يتوقف أساسا
على بلدين وهما : الولايات المتحدة واسرائيل » • أما ريجان حاكم
ولاية كاليفورنيا والمعروف بعدائه السافر للزئوج والشيوعيين والعمال
المضربين ، فلم تكن قد واثته بعد فرصة السفر الى اسرائيل ، فأرسل
لهم برقية يقول فيها ما معناه « الى الأمام سر » بلهجة جاويش «حش»
يخاطب جنوده •

وانى لأدرك أن هناك اسرائيليين يعانون من هذا الوضع
ويأسفون للمساعدة التى تأتيهم من مثل هؤلاء المؤيدين • على أنهم
لا يريدون أن يفهموا أن سياسة حكوماتهم المتتالية ، منذ نشأة
اسرائيل ، لا بد وأن تؤدي الى هذا الوضع المذهل • فليس من باب
المصادفة أن تحالفت اسرائيل تربطها بأكثر الدول رجعية وعدوانية
وتهديدا للسلام • وليس من باب المصادفة أن المساعدة التى تحصل
عليها اسرائيل تأتي أساسا من البلد الذى يضطهد الزوج ويقتل
الفيتناميين ويحمي أكثر الحكومات رجعية وفسادا على سطح الأرض،
ابتداء من حكومات سايجون وسيول وسان دومينجو واليونان • الخ •
وليس من باب المصادفة أيضا أن الدولة الاسرائيلية تعيش فى كنف
أكبر دولة استعمارية •

واذا كان لاسرائيل الحق فى البقاء ، فانه لا يحق لها أن تكون
توسعية وعدوانية ، وليس من حقها أن تنتهج فى القرن العشرين
سياسة أشبه بالسياسات الاستعمارية فى القرن التاسع عشر ،
وليس من حقها أن تقف فى وجه مسيرة شعوب الشرق الأوسط الى
الأمم ، وليس من حقها أن تكون معقلا مسلحا للاستعمار الأمريكى فى
منطقة تتخلص شيئا فشيئا من اضطهاد الماضى من خلال تجارب
قاسية ، وليس من حقها أن تقود الشعب الاسرائيل نفسه الى الحداد
والكارثة •

وعلى الشعب الاسرائيل أن يبحث بنفسه عن وسائل التخلص
من هذه السياسة التى لا يمكن الا أن تؤدي الى كارثة • ويجب على
أصدقائه الحقيقيين ، وعلى كل أنصار السلام ، أن يساعدوه على
التخلص من الخوف الذى لا يقصوم على أساس وأن يوضحوا له
امكانيات الازدهار والتحرر •

لقد قال لى صديق اسرائيلى ، وهو رجل عاقل تعذبه الأوضاع

الراهنه « أنا أدرك تماما أن هذه السياسة خاطئة من أساسها وخطرة ،
ولكن لا يسعني الا أن أردد مثل الانجليز : « انه وطنى ، سواء كان
مخطئا أم مصيبا » . »

وقد ذكرته بقصة قديمة من حكم الشرق ، فقد قال حكيم عجوز
لمريديه « عليكم بمساعدة اخوتكم سواء أصابوا أم أخطئوا . ولكن
أحد مريديه قال له : « ولكن ، يا معلمنا ، كيف يستطيع الانسان أن
يساعد أخاه وهو مخطئ » فأجاب الحكيم : « بأن تمنع ساعده عن
الحركة حتى لا يفعل الشر » . »

فهرس

الموضوع	الصفحة
١ - دولة صغيرة ومشكلة ضخمة	٣
٢ - القدس ٠٠ الآن	١٥
٣ - الدين والدولة	٢٧
٤ - منبذون فى أرضهم	٢٩
٥ - فى المناطق المحتلة	٥٣
٦ - الكيبوتز : هل هو أحد أشكال الاشعراكية ؟	٦٧
٧ - مفهوم فريد من نوعه للتنقابية	٧٧
٨ - تحديد سياسة لاسرائيل	٨٧

المهينة للصورية العامة للتأليف والنشر